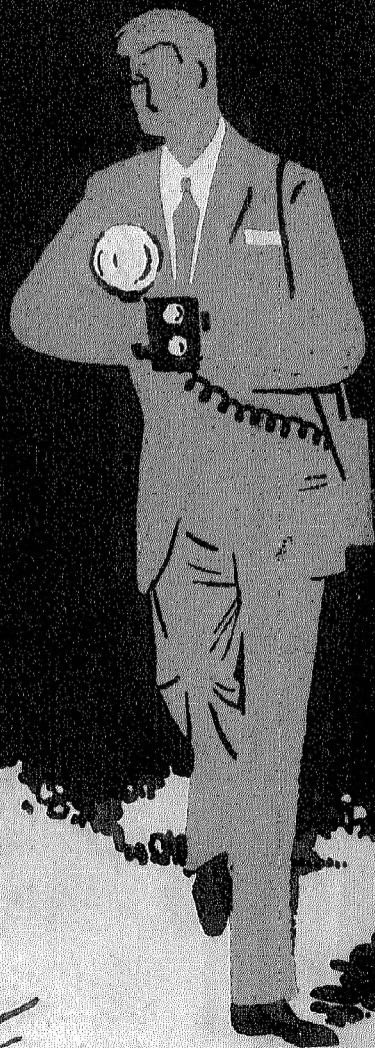


المصاحفة

حرفه
ورسالة



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

سلامة موسى

07
M

كتابات هادفة حياة انسانية شريفة

- | | | |
|------|------------------------|----|
| ١٩١٠ | مقدمة السبرمان | ١ |
| ١٩١٢ | نشوء فكرة الله | ٢ |
| ١٩١٣ | الاشتراكية | ٣ |
| ١٩٢٤ | أشهر الخطب | ٤ |
| ١٩٢٥ | الحب في التاريخ | ٥ |
| ١٩٢٦ | أحلام الفلاسفة | ٦ |
| ١٩٢٦ | مختارات سلامة موسى | ٧ |
| ١٩٢٧ | حرية الفكر | ٨ |
| ١٩٢٧ | أسرار النفس | ٩ |
| ١٩٢٧ | تاريخ الفنون | ١٠ |
| ١٩٢٨ | اليوم والغد | ١١ |
| ١٩٢٨ | نظرية التطور | ١٢ |
| ١٩٣٠ | قصص مختلفة | ١٣ |
| ١٩٣٠ | الدنيا بعد ٣٠ عاما | ١٤ |
| ١٩٣٠ | في الحياة والأدب | ١٥ |
| ١٩٣٠ | ضبط التناسل | ١٦ |
| ١٩٣١ | جيوبنا وجيوب الاجانب | ١٧ |
| ١٩٣٤ | غاندى والحركة الهندية | ١٨ |
| ١٩٣٥ | ماهى النهضة | ١٩ |
| ١٩٣٥ | مصر أصل الحضارة | ٢٠ |
| ١٩٣٦ | الادب الانجليزى الحديث | ٢١ |
| ١٩٤٢ | الشخصية الناجحة | ٢٢ |

مطبعة التقدم

ت : ٢٦٠٢١

طبعة خاصة

٢٠

قرشاً أو ما يعادلها

الصحافة حرفة ورسالة

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د./رمزي طيبي

القاهرة

سلامه موسی

الصحافة في عرفه ورسالة

مركزه موسی للنشر والتوزيع

مترجم من الكفاح الهادف

ص ب ٩١٢ القاهرة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٩٦٣

يوم أن ماتت صحافة مصر

في سنة ١٩٣٠ كان يبدو للمتأمل أن الصحافة قد باتت من الفنون التي لا ينجح فيها سوى غير المصريين . وقد ينتهي من تأمل الواقع — في انتشار الصحف غير المصرية ، وانحلال الصحف المصرية ، وغنى الصحفيين الأجانب وامتلاكهم الدور الفخمة والضياع الخصبة ، وفقر الصحفيين المصريين ، وتشردهم في الشوارع لا يملكون كوخا ولا قيراطا — أن الكاتب الاجنبي في مصر أذكى عقلا ، وأبعد نظرا ، وأدق تحريرا للصحف ، مجلات كانت أو جرائد ، من الكاتب المصري ولكن هذا الاستنتاج سرعان ما يتقلب إلى التقيض عندما كان يتعمق القارئ في تأمله ويربط النتائج بأسبابها . فالحقيقة أن الظروف السياسية كانت مدة الاحتلال الإنجليزي (أى سنة ١٩٢٠) تعمل لكبت الروح الوطنية بمساعدة الجرائد الموالية للإنجليز ، ومعاكسة تلك التي تناوئهم . فنحن نرى عقب الثورة العرابية أن الحكومة تدفع تعويضا ضخما لأصحاب جريدة غير مصرية ، لأن الثائرين كسروا المطبعة لانضمام هذه الجريدة إلى الخديو . وكان هذا فاتحة اليسر والخير

لتلك الجريدة . ثم نجد الإنجليز بعد ذلك يسندون بنفوذهم جريدة المقطم التي أصبح أصحابها بهذا السند القوى من أغنياء القطر المعدودين . وعلى هذا كان يرى القارىء في سنة ١٩٣٠ أن تفوق الصحف غير الوطنية لا يعزى إلا لأسباب لا يرضاها مصرى لنفسه

ثم جاءت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ ، وحدثت الانشقاقات في الوفد بعد ذلك وصار لكل حزب جرائده . والصحفيون غير الوطنيين في مصر يعيشون كالمملوك « فوق الاحزاب » . فهم يتمصرون ، ولكن تمصرهم لا يحملهم على الغلو في الوطنية . ولذلك فهم يستفيدون من الوطنية المصرية لأنهم يتحامون ما فيها من غلو ، هذا الغلو الذي جعل الاستاذ عبد القادر حمزة يصدر منذ سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٣٠ « ١٤ » جريدة تقفل كلها ، بعضها اقفاً نهائياً وبعضها لبعضة أشهر . فلنرض أننا قابلنا بين صحفي غير وطني وبين الصحفي المصري عبد القادر حمزة ، فهل من الانصاف أن نقيم هذه المقابلة على النتيجة الحاضرة ، وهي موت البلاغ وافلاس صاحبه ، بينما كانت الصحف المحايدة في سنة ١٩٣٠ حية تملأ الشوارع ، وأصحابها قد تكدست خزائهم بالمال ؟

نظن أن ذلك ليس من الانصاف . والذي كان يقول بعجز المصري عن تحرير الصحف وإدارتها لا يمكنه أن يضرب المثل بالبلاغ والصحف المحايدة التي كانت تنافسها في ذلك الحين . بل هو إذا كان ضرب هذا المثل في ذلك الوقت فإنه يفتح أعيننا للطرق التي كان يعيش بها الصحفي الأجنبي من الصحافة ، وهي طرق لا يرضاها مصرى . ومن البديهي أنه لا يمكن لمصنع في العالم أن يعيش إذا كان يعرض للإغلاق ١٤ مرة في عشرة أعوام ، كما حدث للجرائد التي أصدرها الاستاذ عبد القادر حمزة

وهكذا أوشكت صناعة الصحافة في ذلك الحين أن تفلت من أيدينا وتمسى صناعة غير مصرية يحتكرها غير المصريين . وليس للصحفي الأجنبي ميزة علينا فيها سوى أنه لا يغضب عندما يجب الغضب ، ولا يبالي مصلحة مصر تعرض للضياع مادام هو يرجح من هذا الضياع ما يريد دخله بضع مئات من الجنيهات . وهو على كل حال يمتاز بوطن آخر يمكنه أن يذهب إليه ويعيش فيه إذا لم يوافق العيش في وطننا . ولكن أين نذهب نحن ؟

وكان عاراً علينا كبر العار أن يوكل تكوين الرأي العام المصري إلى أقلام غير مصرية ، غريبة عنا في المزاج ، لا يشغل قلوب أصحابها ما يشغل قلوبنا من آماني وآمال ، ولا يؤلمها ما يؤلمنا وظهر نوع من الصحف المحايدة . وكان على رأس إحدى هذه الصحف صحفي قارع . وكانت توارب وتراوغ ، فلا تستطيع إلا أن تشمئز منها . فهي تكتب أحياناً مقالا مستور اللهجة والغاية ، تخرج منه بأن حكومة معينة حسنة وحزبا معيناً حسن . وكان هذا هو النفاق الذي يشمئز منه الإنسان

وكانت هناك جريدة غير مصرية تهاجم حزبا ، ولكنها كانت تخشى أن يفلت منها القراء المائلون اليه . فهي تشطر نفسها شطرين ، لتضمن القارئ ، فتجعل نفسها حكومية ، وتجعل مجلة أسبوعية أخرى تصدر عن نفس الدار حزبية . فمن يكره الجريدة اليومية لحكوميتها يقرأ المجلة الأسبوعية لحزبيتها !

وكانت هذه المجلات والجرائد تعيش في بلادنا ، ويرجح أصحابها

الألوف من الجنهات ، وتستقر لهم بها صناعة يثرون منها مع ما فيها من الأذى . بينما كتابنا المصريون أمثال محمود عزمى يبحثون عن عمل آخر غير الصحافة يستطيعون أن يعيشوا منه . لأن صحفنا المصرية كان قد مضى عليها عشرون سنة وهى تعطل ويخرب أصحابها ويشتت محرروها . أما الصحف الاجنبية فلا تعطل ولا يمس أصحابها أذى وكان علينا جميعا أن نقرأ كل يوم ما يكتبه لنا الصحفيون غير المصريين ، فيما يجب علينا ، وما لا يجب أن تتبعه فى سياسة بلادنا من الخطط . كأن الصحفي الأجنبى هو الوحيد الذى كان يؤتمن على مصلحة مصر فى الصحف . أما المصرى فلا يؤتمن على ذلك وكان هذا شقاء

وكان هناك صحفى غير مصرى يكتب كل صباح ممتلا افتتاحيا للمصريين عن فوائد الاحتلال البريطانى ، وجهالات الوطنيين الذين لا يعرفون ما يقولون . وكان هذا الصحفي يسمى الزعيم مصطفى كامل «شخاذ بردنجوت» . وكان قبل ذلك يكتب فى جريدة فى الخرطوم ، يشتم المصريين ويمدح الانجليز . وكان يكتب كل يوم مقالا عن الأوباش المجرمين الذين يطالبون بتحرير المرأة ومساواتها بالرجل فى مصر . ويدعو الرجعيين إلى أن يملأوا صحيفته بأرائهم . فاذا وجد من ذلك فائدة مالية تملأ اليد فذاك ، وإلا فانه يدعو المجددين للكتابة فى صحيفته ويحثهم على شتم الرجعيين . ثم يدعوا فيقول ان هذه الوزارة حسنة وتلك سيئة ، وأن النظام البرلمانى لا يفيد المصريين كثيراً ، وانا يفيدهم بناء الموانى وصنع السفن الخ . وعاشت تلك الجريدة طول عمرها تقول

إن احتلال الإنجليز لمصر خير من استقلالها . وكانت صحيفة غير مصرية
أخرى في الصراع الذي قام بين الخديو توفيق والحزب الوطني تالمى
الخديو وتساوده على الأمة التي نكبت به
وكان كل هذا مسببة لذكائنا ووطنيتنا وعاراً بل فضيحة لتغلب هذه
الصحف على صحافتنا

وهكذا كان أولئك الصحفيون غير المصريين أغنياء ، وكنا نحن
الصحفيين المصريين فقراء . وليس ذلك لأنهم أذكىاء ونحن بلداء ،
لأننا كنا نكتب بضمير وطني ، ونغضب ، عندما نعتقد أن الغضب
واجب . وهم يكتبون بضمير غير وطني ولا يغضبون لاية نكبة تنزل
بنا ، لأن الوطن ليس وطنهم بالعاطفة والقلب

وكانوا لا يبالون بالأذى يصيب عقولنا . وهم أغنياء يملكون دوراً
كالقصور ، ويعيشون في ترف قد لا يبلغه الوزراء . ولم تكن هذه
الجرائد والمجلات غير المصرية تخشى تعطيلاً من الحكومة . ولم يكن
أحد من التجار يتوقع لها موتاً قريباً أو بعيداً . ولذلك كانت تنال
اعلاناتهم وتستحوذ بذلك على آلاف الجنيهات التي يحرم منها الصحفي
المصري لأن التجار لا يتقون بصحفه إذ هي عرضة للتعطيل في كل وقت
ونترك هذه الصحف غير الوطنية ونقصد إلى حيث كان يعيش الصحفيون
المصريون ، فكأنك انتقلت من مدينة الأحياء إلى جبانة الأموات .
كنت تجد أحدهم قابعا في غرفة أو شقة وقد تأخر عليه إيجاره خمسة
أو ستة أشهر . أو كنت تجده يصدر الصحيفة وهو لا يملك المطبعة .
أو هو يملك المطبعة ولا يملك الصحيفة . وكنت تقرأ الصحيفة المصرية

فلا تجذبها أخباراً ، لأنها عطلت مراراً حتى تركها المخبرون وبحشوا لهم
عن عمل آخر يستطيعون أن يعيشوا منه
ودار الصحيفة مصنع ، تكتسب الخبرة فيه بالتجارب المتكررة
ويحظى بعطف التجار بالاستمرار . فالصحيفة إذا عطلت ١٤ مرة في
١٠ سنوات ، كما عطلت جرائد عبد القادر حمزة ومحمد التابعي واحمد
حافظ عوض وتوفيق دياب ، لا يستطيع أن تحظى باعتماد التاجر في
اعلانه . بينما كان الصحفي الاجنبي المحايد يمكنه أن يختار أحسن المخبرين
ويشتري الورق بالثقة . وكان لا يمكن للصحفي المصري أن يفعل ذلك .
كان قد مضى عليه عشرون سنة وهو مزعزع ، ثقيل داره في أى وقت ،
ويطرد إلى الشارع في أى وقت . ولذلك لم يكن يثق به أحد . عشرون
سنة مضت من الاضطهاد للصحافة المصرية قضت علينا وجعلتنا فقراء
وكانت لنا خصومات داخلية أسدلت على عيوننا غشاوة ، فصرنا
لانفق الحق . ولانستطيع تمييزه من الباطل ، حتى بتنا نبذ بعضنا بعضا
بالخيانة . فصار الدستوري لا يقرأ جرائد الوفد . وصار الوفدى لا يقرأ
جرائد الدستوريين . فانتهت القصة أو المهزلة بأن التجأنا إلى الجرائد
المحايدة نقرأها ، لأنها ليست وفدية ولا دستورية
ومضى علينا أكثر من عشرين سنة وجرائدنا ومجلاتنا ثقيل
بحزنية عمياء وعصبية صماء . وسقطت الصحافة المصرية بذلك ، وخسرت
في ذلك الحين كل شيء إلا الشرف . فصار الغنى في جانبهم والفقر في
جانبنا . والوجاهة لهم والاحتقار لنا . وكل ذلك لأننا كنّا نخلص
لمصر وطننا

وكسنا نصدر الجريدة أو المجلة فلا يثق بنا تاجر ويأتمننا على اعلان واحد . وكنت تفتح الجريدة الأجنبية في مصر قراها حافلة بالاعلانات التي تعود على أصحابها بعشرات الالوف من الجنيهات ، ولكنك كنت تفتح المجلة أو الجريدة المصرية فلا تجد بها اعلاناً واحداً يستحق الذكر وهكذا انهمزمت الصحافة المصرية ، وأصبح الصحفي المصري شخصاً ساخطاً فقيراً ، أضعاف ماله كما أضعاف عمره في صناعة اعتقد أنه سيجد فيها المجال للخدمة الصادقة لأمة . فعادت عليه هذه الصناعة بخسارة العمر وخسارة المال . وكنت أينما سرت ، من الاسكندرية إلى اسوان ، لا تجد إلا جرائد ومجلات مصرية في النزاع الذي تستقبل فيه الموت القريب

مثل هذه الحال كان يجب أن ندرسها ، وأن نتعرف أسبابها ، لأنها حال لم تتفق وكرامتنا الوطنية أو مصلحتنا الاقتصادية .
 الصحيفة هي مرآة الأمة . مرآتها اليوم تريبها نفسها كما هي الآن ، ثم هي مرآتها في الغد تريبها نفسها كما يجب أن تكون في المستقبل .
 وهي لهذا السبب يجب ألا يقوم بها أجنبي غريب عنها في الدم أو المزاج أو الرجا . ولكل أمة مزاجها الذي تتميز به من سائر الأمم .
 فنحن نضحك من النكتة التي لا يضحك منها الاجنبي لأن لنا مزاجاً هو خلاصة آلاف السنين من الوراثة ليس لأحد أبناء الأمم الأخرى .
 ولكل أمة فكاهتها التي تضحكها ولا تضحك غيرها . فقد يأخذ أحدنا مجلة بنش الانجليزية أو سبيلسموس الألمانية ويقلب صفحاتها فلا يفتر ثغره بابتسامة ، بينما يجد الانجليزى أو الالماني فيها ما يجعله يفقه

فهذا المثال البسيط يدلنا على أن لكل أمة ذوقا لا يستجيب للغريب في النكتة والفكاهة . وهي كذلك لا يمكنها أن تستجيب للغريب في الادب أو الصحافة ، بل هي إذا استجابت له في ذلك فاستجابتها برهان على أن ذوقها قد فسد ونفسها قد وهنت لطول ممارستها لها . وهذه الصحف والمجلات الاجنبية في مصر لم تكن تعبر عن النفس المصرية أو الذوق المصري ، لأنها كما تختلف عن الأجانب في النكتة والفكاهة كذلك تختلف في الروح الصحفية . ومن الافساد الكبير لأذواقنا ونفوسنا المصرية أن نطبعها بطابع أجنبي

ولكل أمة رجاء تقصد اليه بقلوبها وعقلها . ونحن لنا رجاء الاستقلال والحرية والاصلاح الاجتماعى ، وهو رجاء لا يؤنس قلوب الصحفي الاجنبى . ولو أنه آنسه لكانت بلاده أولى به منا

لقد مات مصطفى كامل فكان شبابنا يكون في الشوارع . ومات بعد ذلك سعد زغلول فكانت نساؤنا قبل رجالنا يمينه في البيوت . فهل بكى الاجنبى من أجل مصطفى أو سعد ؟

وكان لنا مسائل اجتماعية ، منها مسألة المرأة ، ومسألة الفلاح ، وهي مسائل كانت تشعرنا بالضعف والانحطاط كلما رأينا الشقاء الذى يعيشان فيه . وكنا نحن راضين بالتضحية والجهاد من أجل إصلاحهما . فهل كان يرضى الصحفي الاجنبى في مصر بأن يضحي بشيء من ماله أو نفسه من أجل ذلك ؟ كلا . لأن رجاءنا كان يختلف عن رجاءه

والصحافة هي بعد ذلك نوع من الادب الجديد ، أدب الجماهير والعامه ، فهل نحن نبغي منه أدبا مصرية أو أدبا أجنبيا ؟

ليس شك أننا كنا نريد أدبا مصرى . كنا نريد من الصحفى المصرى أن يخاطبنا بلقنتنا ، وأن يحرك فى نفوسنا الأمانى المصرية . ولم ننتظر من الصحفى الاجنبى أن يودى لنا هذا الواجب . بل هو لا يستطيعه لو أراد أن نفسه غير نفسنا . فلم نكن ننتظر من الجرائد والمجلات الاجنبية أن تطالبنا بدرس الحضارة الفرعونية ، كما فعل الدكتور محمد حسين هيكل ، وأن يثبت على هذه الدعوة بيننا المجلات الاجنبية تهمة بالاحاد من أجلها . ولم نكن ننتظر منها أن تدعونا لى وطنية مصرية ، كما فعل الاستاذ لطفى السيد فى الجريدة ، مع الاهانات المتكررة التى لقيها من العامة على ذلك

والخلاصة أن الصحيفة التى يقرأها المصرى يجب أن تكون مصرية بالدم والروح والمزاج ، لأنها مرآة نفسه فى اليوم والغد . وتمثل رجاءه فى الاستقلال والحرية . وتشد له أدبا مصرى يتفق ومزاجه ولغته ويثبته ومصريته

وكانت الصحافة تجارة مثل أى التجارات ، ولكن كانت قيودها أثقل من سائر التجارات . وكان الصحفى المصرى يحمل هذه القيود راضيا وينزل على شروطها صاغرا ، لأنه كان يراها تتفق ومصلحة وطنه التى هى أكبر من مصالحته . ولكن الصحفى الاجنبى لم يكن يبالى بهذه القيود ، فهو كان يشتد من هذه التجارة الربح . والربح فقط

لهذا السبب مضت علينا ثلاثون سنة والجرائد المصرية تعطل بينما الجرائد الاجنبية لا تعطل . وانتهت هذه الحال بأن أصبحت الصحافة فى مصر صناعة أجنبية كاد ينساها المصرى . ونحن نعرف من الشبان

المصريين عشرات هجروا الصحافة لأنهم وجدوا من تعرضها المستمر للتعتيل ما يجلب عليهم الجوع والحرمان ، فتركوها ساخطين .
والصحفي الاجنبي المحايد لم تتعرض جريدته للتعتيل لأنه كان يسير مع كل حزب ويمشى وراء الغالب . وهو لم يكن يشعر بالعار يلاحق بالانسان إذا استبدل بآرائه وخططه السياسية خططاً وآراء أخرى ، كما يستبدل الانسان حذائه ، وذلك لأن مصر ليست وطنه . وهو انها هاجر اليها يبغي منها المال ولم يبغي منها وطناً . ولهذا السبب لم تكن تجد اجنبياً ينضم إلى حزب معين من الأحزاب السياسية المصرية ، وقد تسمع منه أنه متمصر وأنه لا يعرف من الاوطان سوى مصر ، ولكنه مع ذلك لم يكن يرضى أن يكون وفدياً أو دستورياً لأن مصلحته التجارية كانت تدفعه إلى أن يبقى خارج الأحزاب يستغلها كما يشاء . ولأنه كان يخشى اذا هو تقيد بأحد الأحزاب أن يتعرض للتضحية . ثم هو إلى الأغراض المالية والكسب المادى كان يسير على الدوام مع الكسرة من العامة في الشؤون الاجتماعية
وكنا نحن في مصر نطالب بحرية المرأة . ولكنه كان يرى أن العامة تذكره هذه الحرية ، فهو يسير مع العامة ويدافع عن الحجاب ، مع أنه في بيته وبين أهله وبني وطنه كان يضحك منا وينسب تأخرنا إلى الحجاب ، وهذا هو السبب في المقالات الكثيرة التي كان يكتبها الرجعيون في الجرائد المحايدة الاجنبية في الدفاع عن الحجاب ونقشي الاتحاد في مصر

هذلاً إلى هذر وهذيان وسخف من القصص والحكايات والخرافات

كان يكتب في الصحف الاجنبية لتسميم العامة وإضعاف عقولها
وبينا كنا نرى الصحف المصرية معطلة، والأقلام المصرية مقصوفة،
نرى المجلات الاجنبية تنساب بين العامة كأنها الحيات السامة . تشرح
لهم كيف أن « الاستاذ » حافظ نجيب كان ينصب على الناس . وكيف
أن بطالا من أبطال الأوباش كان يأكل حذاء كاملا . وكيف استطاع
شحاذا أن يشتري بالشحاذة عقارا ضخما . وكيف يدخن الحشيش ، وأين ؟
وكان يكتب هذا في مجلات أنيقة الطبع ، تستهوى العين بالصور
الجميلة وبالطبع الحسن ، فيقرأها الشاب المصرى ويضعف عقله ويختل
نظره للأشياء . حتى ليظن العبقرية في النصب والشحاذة والسخافة
ولنضرب مثلا على الاجنبى فى مصر بواحد منهم جعل الصحافة
المصرية هذرا وهذيانا ، يجمعون منها قروش العامة ، ويثرون ، بينما
عبد القادر حمزة ومحمد التابعى وعباس العقاد وحافظ عوض وتوفيق
دياب ومحمد أبو طائلة واحمد حلى وغيرهم ، تقصف اقلامهم وتخرب
بيوتهم
كان هذا « الاستاذ » يكتب فى المجلات الاجنبية قصصا يتكرر
بعضها عشر مرات أحيانا عن فتح الله بركات باشا ، الذى يختلف عن
سائر الناس أجمع من حيث أنه لا يأكل المدمس وانا هو يغمس اللقمة
فى مرق المدمس فقط . ويذكر « الأمير » فاروق فيقول عنه : انه
لا يتخاطب بجلالة والده أو والدته بقوله « يا صاحب الجلالة » أو « يا صاحبة
الجلالة » ، وانا يقول كما يقول سائر الأطفال فى العالم : « يا بابا » و « يا ماما » .
ثم يذكر الامير عمر طوسون فيقول عنه : انه يدخن الشيشة قبل الظهر .

ويدخنها أحيانا بعد الظهر . وأحيانا لا يدخنها قبل الظهر أو بعد الظهر .
ثم هو ، أى الأمير ، يأكل فى الغداء أكثر من العشاء ، وأحيانا يأكل
فى العشاء أكثر من الغداء

ثم يقول أن الاستاذ لطفى السيد تقابل مع على الشمسى باشا فبدلا
من أن يبدأ التحية على باشا بدأها الاستاذ لطفى السيد

هذا هو الكاتب المثلالى الاجنبى الذى كان يكتب للعمامة هذا الهذر
ليضعف عقولهم ، بينما كتبنا المخلصون كانت أقلامهم قد قصفت .
وكان بعضهم يبحث عن عمل آخر غير الصحافة يمكنه أن يعيش منه
دون أن يتعرض للجوع

وفى سنة ١٩٣٠ أصدر اسماعيل صدق باشا قرارا بإقفال ثلاثة

مصانع مصرية

هذه المصانع المصرية هى :

١ — البلاغ . لصاحبه عبد القادر حمزة

٢ — الكوكب . لصاحبه أحمد حافظ عوض

٣ — اليوم . لصاحبه توفيق دياب

وكل من هذه الجرائد كان مصنعا يحتوى على آلات كبيرة ، ومواد
كيمياوية ، ويحتاج إلى عمال ميكانيكيين وكيميائيين يفهمون الآلات
ويدرون بالإصباغ . ولا يمكن لأحد هذه المصانع أن يرتقى ويبلغ
درجة من الاتقان تجذب عين القارئ إلا بعد تجارب وتضحيات كبيرة .
وقد كان يعيش فى كل من هذه الجرائد وحولها نحو خمسمائة أسرة مصرية
ولكن هذه المصانع المصرية أقفلت ، فوثبت الصحف المحايدة

الاجنبية إلى الأمام وأخذت مسكانها . والجريدة ترسخ بالزمن لأنها مصنع يرتقى بالتجارب الفنية ، والزمن وحده هو الذى يجعلها تنال حظوة التجار فى الاعلان عن بضائعهم ، والتاجر لا يمكنه أن يأتمن جريدة على إعلانات وهى معرضة للبهوت فى أى يوم

وهذه الخطة فى إقفال الجرائد المصرية قد مضى عليها عشرون سنة، بل أكثر ، وكانت تسير نحو هدم الصحافة باعتبارها صناعة مصرية وإحيائها باعتبارها صناعة أجنبية . حتى أننا نحن الصحفيين المصريين نرى الهزيمة واضحة فى جانبنا والفوز ظاهراً فى جانب الأجانب . وبينما كانت الحكومة تسن القوانين ، لمساعدة المصانع الأخرى ، تعتمد على المصانع الصحفية المصرية فتقتلها . فكنا فى حاجة إلى تغيير الخطة كلها للمحافظة على هذه الصناعة

ونحن نضرب مثلاً عن شناعة هذه الخطة بجريدة البلاغ . فهذا « البلاغ » قد اشترى فى سنة ١٩٣٠ ما كينة للطبع لا يقل ثمنها عن سبعة آلاف جنيهه ويبلغ قسطها الشهرى ٧٠٠ جنيهه . وكانت هذه الماكينة تستطيع لإخراج البلاغ بالألوان والصور ، وقد عطله اسماعيل صدقي بعد تجارب مضى عليها أشهر ، كانت كلها خسارة فى انتظار الربح القادم . أى لما أوشك كل شىء أن يتم ، وبعد التضحيات الكثيرة ، عطلت الجريدة . ولم يكن على الاستاذ عبد القادر حمزة سوى أن يبيع هذه الماكينة بأبخص ثمن أو أن يعلن إفلاسه . وفى إفلاسه إفلاس العمال الذين تعملوا هذه الصناعة . بل إفلاسنا جميعاً

ثم كانت لإحدى الجرائد الاجنبية التى تسير مع كل حزب وتجرى

مع كل ربح ، وتضحك منا جميعا ، قد اشترت ما كينة للطبع بالألوان أيضاً . ونجحت بها . ولم تخش الجريدة الخسارة لأن صاحبها لم يصدّم بأية قوة غالبية في البلاد . وعندما عاد البلاغ إلى الظهور كانت الصحف الاجنبية المتفرجة قد رسمت ونالت حظوة القراء ، وحظوة التجار في الاعلانات ، فلم يستطع البلاغ أن يرحزحها عن مكانها والمغزى أن مصنعا أجنبيا كان يتغلب على مصنع مصرى ويقتله . والنتيجة أنى أنا وأنت ، أيها القارىء المصرى ، كننا نحسر بهزيمة الصحف المصرية التى يعطّلها الحاكم

والعلاج الوحيد هو أن ننقل العقاب من الصحيفة إلى الصحفي فالصحيفة المصرية مصنع يجب الايقفل بأية حال . فاذا حدثت عن سبيلها جنائية فلنعاقب الجاني ، وهو الشخص الكاتب . ولا نعاقب الصحيفة . فلنفرض أن جريدة البلاغ مثلاً ارتكبت جنائية ، فلنقبض على المرتكب ونعاقبه ، أما الجريدة فيجب أن تصدر كل يوم لأنها في نفسها لا ترتكب الجنائية وإنما هناك شخص أو أشخاص يرتكبونها وهم الذين يستحقون العقاب

وقد كان القدماء يعاقبون الآلة التى ارتكبت بها الجريمة فيتلفونها . واكتسنا إرثيننا عليهم وقصرنا العقاب على الشخص الجاني أما الآلة فشيء نافع يجب أن يستمر في العمل . فإذا فرضنا أن قاطرة داست بعض الناس وقتلتهم . فنحن لا نتلف القاطرة ، بل نعاقب السائق ، ونترك القاطرة تؤدى خدمتها للجمهور بعد أن يتسلمها سائق آخر خبير بالسياقة . وهكذا يجب أن تكون الحال في الصحافة عندما ترتكب إحدى

الصحف جناية ، نعلم إلى السكاتب فنجلده أو نحبس أو نشقه . ولكن يجب أن تترك الصحيفة تصدر كل يوم وتؤدي خدماتها للناس ، لأنها هي الآلة ، وهي حديد وحبر وورق ، لا يمكنها وحدها أن ترتكب جناية، وإنما المرتكب شخص يمكن استبداله وعقابه. ثم في اقفال الجريدة أو المجلة قتل لصناعة مصرية يجب أن تشجع وتعيش مثل سائر الصناعات

لما كانت الصحافة محترقة

أذكر أنى فى ١٩٢٣ احتجت إلى أن أستأجر مسكنا بالقاهرة .وقصدت إليه وعايته وارتضيته بأجرة شهرية قدرها سبعة جنيهات . وشرعنا فى كتابة عقد الايجار . وما هو أن فهمت مالكة المسكن أنى صحفى حتى إنتقضت من مقعدها وهى تقول : « جرنالجى » ويدفع منين سبعة جنيهات فى الشهر ؟

ورفضت التوقيع على العقد . ولم تجد معها المناقشة والشرح . وخرجت وأنا أتعر فى ثوب الخيبة

واستطعت ، بعد أن تشفعت بقريب لها ، وبعد أن دفعت مقدما أجرة ثلاثة أو ستة شهور ، أن أحصل على رضى المالكه وعلى المسكن وقد مضى على هذه الحادثة ٣٥ سنة ولكنى أذكرها كى أبين للقارىء المسكنا المحترقة التى كان الصحفى يحتلها فى المجتمع المصرى . وكانت كلمة « غازيتجى » من الكلمات التركىة التى تعنى « صحفى » . وكانت مألوقة عند الطبقة الحاكمة فى بداية هذا القرن ، وكانت تحمل معنى التشرذم والفقر والصلابة

ولما تزوج الشيخ على يوسف صاحب « المؤيد » ابنة الشيخ السادات أقام الاب دعوى عليه يطلب الغاء الزواج بدعوى أنه صحفي ، وأن الصحافة محترمة ، ولا يليق بمن تنسب إلى « الإشراف » مثل ابنته أن تصاهره . وحكمت المحكمة الشرعية بالغاء الزواج على هذا الأساس . أى أن الصحافة مهنة غير شريفة ، ومحترفيها لا يليق لمصاهرة اسرة « شريفة » وقبل نحو ثلاثين سنة كان صادق سلامه صحفيا في المنيا يرأسل جرائد القاهرة . وكان يكتب في انتقاد المدير وسائر الموظفين المسؤولين في المديرية . وغازظهم نقده . وذات صباح جاءه رجل البوليس يقوده إلى مأمور البندر . وهناك ووجه بهتمة التشرذ . وتسلم « انذار » التشرذ . وكان هذا الاجراء بعض ما يلاقيه الصحفيون من رجال الادارة والسياسة في مصر في تلك الأيام

ولكن صادق سلامه كان رجلا إلى نخاع عظامه . فقصد إلى القاهرة . وسعى حتى حصل على رخصة باصدار صحيفة اسبوعية أسماها « الانذار » تغليداً للفضيحة التي ارتكبها رجال الإدارة معه في المنيا .

وقد شرفني بالتحرير فيها فيما بين ١٩٤٨ و ١٩٥٢

والواقع أن الصحافة قبل نحو أربعين أو خمسين سنة كانت من المهن المحترمة ، إذا اعتبرنا أن نوع النجاح الذي يعترف به المجتمع هو النجاح المالى . فإني أذكر أنى اشتغلت في « اللواء » سنة ١٩٠٩ بأجر شهرى قدره سبعة جنيهات . وخرجت لعجز الجريدة عن دفع أجرى . بل خرجت ولى عندها متأخر شهرين أو ثلاثة شهور

ونستطيع أن نعزو انحطاط الصحافة المصرية إلى جملة أسباب

أولها أن الحكومة ، الاستعمارية الاستبدادية ، كانت تطاردها باعتبار أنها تحمل راية النقد لإدارة يجب أن تبقى مسترة عن أعين الجمهور . وكانت أيضاً تدعو إلى جلاء الانجليز المحتلين لبلادنا ثم كان تأخر التعليم ، وتحديد عدد المدارس الحكومية ، يعمم الامة أو يكاد بين طبقات الشعب . فكان جمهور القراء صغيراً لا يغذو جريدة يومية أو اسبوعية كثيرة النفقات . فكانت اجور الصحفيين ، تبعاً لذلك ، منخفضة

ولذلك كانت جرائدنا على الدوام في افلاس ، بين التعطيل والفرامة وحبس المحررين والخبرين . ولم تكن في حالها هذه تتيح للصحفى أن يتربى التربية الصحفية . وقد مات اللواء ، ومات بعده المؤيد ، ثم الدستور ، ثم الجريدة ، وهذا غير عشرات المجلات . وأصبح الاعتقاد العام أن الصحافة مهنة خطيرة ، تؤدي إلى الحبس ، كما هي مهنة المفلسين أو الموشكين على الافلاس . ولذلك لم يكن يقبل عليها الا كفاء الذين يجدون عملاً آخر يتيح لهم الطمأنينة والكسب ألا أولئك الهواة المهووسين بالفن . وهؤلاء كانوا على الدوام قلة

ولهذه الأسباب جميعها كثيراً ما كننا نجد الشبان يلبأون إلى الصحافة كما لو كانت معبراً يعبرون منه إلى وظيفة حكومية . وكثيراً ما حدث هذا . فان المحرر أو الخبر باتصالاته بالموظفين كان يجد الفرصة لان يشب من الصحافة إلى الوظيفة . ويترك الصحافة في غير أسف وبقي احساس الخطر من مهنة الصحافة قائماً عند كثير من الصحفيين إلى وقت قريب . فإن الصحفى لم يكن لينتظر من مهنته أن تكون

رسالة حياته ، أو على الأقل مورد رزقه طيلة حياته . فكان يجمع منها ما يستطيع من مال كي يشتري ضيعة أو يقتني منزلاً . وهو بهذا العمل كان يخرب صحيفته ، اذ يكف عن ترقيتها ، بالانفاق عليها ، حتى تزداد خدمتها للجمهور . ولذلك كثيراً ما ماتت الصحف لأن أصحابها لم يرعوها بالتحسين والتوسع

وواضح أن هذا الاحساس بالخطر من مهنة الصحافة كان يعود في الأثر إلى القوانين الفاشية التي ذكرناها ، والتي كانت تحمل الصحفي على أن يبحث عن عمل آخر ، أو يقتني ما يكفل له العيش ، من مرتزق آخر . وخاصة إذا كانت صحيفته من تلك الصحف المكافئة ، وليست من تلك الصحف المتفرجة ، أي تلك الصحف التي وضعت نصب عينها مكافئة الاستعمار ومكافئة الاستبداد . فإن موقفها كثيراً ما كان يقضي عليها بالانقضاء ، أي الموت ، أو الحبس المؤبد المهيمن ، أو الغرامة الفادحة ويمكن أن نعد الصحف المصرية التي ظهرت ثم ماتت لموقف الكفاح هذا بالئات منذ عرفت مصر الصحافة . وهي لم تمت إلا بعد أن بعثت في قرائها روح الكفاح ، وبعد أن نادى ، وأطلقت صرخاتها ، من أجل الحرية والاستقلال ونزاهة الحكم . ولذلك لن ننسى فضلها

* * *

كانت الصحافة مهنة محتقرة ، كما كانت أيضاً خطيرة ، ولكنها كانت أيضاً فقيرة

وكان مرجع فقرها إلى أنها كانت مهددة بالافلاس في كل وقت . فلم تكن تؤدى من الأجور والمرتبات للذين يعملون فيها إلا أخس

المبالغ . ثم كان موقف العداء الدائم الذى كانت تقفه منها الحكومات الاستبدادية يحرم المشتغلين فيها أى ضمان من الاقالة أو حرمان المكافأة . وكان هناك من أصحاب الصحف استغلايون ، دخلوا فى هذه الحرفة بنفس الروح التى يقدم بها التاجر على تجارة ما ، لا يغبى سوى الربح . ولذلك كانوا يرهقون عمالهم من المحررين إلى الطباعة بالعمل الشاق الذى كثيراً ما أودى بصحتهم

وجميع الصحفيين يعرفون كيف أن إحدى الدور الصحفية القديمة فى القاهرة كانت ترهق محرريها بالعمل حتى كانوا يخرجون منها وهم فى انهار نفسى ، لو أنه طالبت مدته ، لكان قد حملهم على الانتحار أو قضى عليهم بالجنون . وكيف أن كثيراً من عمال الجمع والطبع اصابوا بالسل لمشقة العمل . زد على هذا أنه لم تكن هناك مكافآت للصحفى عن سنى عمله إذا استقال . وقد عملت أنا سبع سنوات فى دار صحيفة مشهورة ، وخرجت ، دون أن أحصل على مليم واحد مكافأة وكانت خسة الأجور والمرتبات من دواعى الاحتقار عند الشعب للصحفى . فأننا نعيش فى نظام ثرائى اقتنائى يحسب فيه مقام الفرد بمقدار ثروته وما يكتنى من عقار وما يحصل عليه من دخل

الصحافة تلقى عنناً وعسفاً

بعض ما أكتب في هذا الفصل قد أشرت إليه في مواضع أخرى موجزاً عابراً . ولكنى أحتاج هنا الى الإيضاح والتركيـز فالصحف هى عين الشعب على الحاكـين . فاذا كان هؤلاء من المستعمرين والمستبدين فانهم لا يطيقون هذه العين الناقدة البصيرة التى تعين الاخطاء وتفضـح الخيانات وترتب المسؤوليات . وقد كان كثير من الحاكـين فى مصر منذ ١٨٨٢ الى ١٩٥٢ خونة ولصوصاً ، ترتشى ضياتهم عن الحق والعدل ، وترضى نفوسهم نهب البلاد . وقد رأيت كثيراً فى حياتى الصحفية من جرائم هؤلاء الحاكـين

أذكر ، قبل أ كثر من عشرين سنة ، أنى كنت فى دكان حلاق كنت اوثره على غيره لانه كان يستخدم حلاقا يدعى « المصرى » كانت له اتصالات بالصحافة . وكان يجيد الكتابة فى شئون العمال . وبينما هو يشغل بقص شعرى إذا بشرطى يدخل ويلقى القبض عليه ويقيده . وكانت التهمة التى سيق بها الى مركز البوليس هى « التشرد »

التشرد وفى يده المقص يقص شعر الزبـون

وقد كانت تهمة « التشرد » من التهم المحبوبة المأثورة عند البوليس أيام الحاكين المدنسين ، يتهمون بها الصحفي من وقت لآخر كلما عجزوا عن اثبات تهمة صحفية واضحة عنه

فقد التقى القبض في المنيا على صادق سلامه وسلم « انذار » . وكان كل ما ارتكبه أنه كان يرسل صحف القاهرة وينتقد المدير والوكيل في المديرية . وأصدر بعد ذلك صحيفته الاسبوعية باسم « الانذار » في ذكرى هذا الحادث على ما ذكرنا قبلا وبقيت صحيفته بهذا الاسم الى أن توفى في ١٩٥٥

وأسوأ من هذا ، في باب الظلم ، ما حدث لاحد أصحاب الصحف . فقد كان في اوربا وكتب أحد محررى صحيفته كلمة استوجبت تحقيق النيابة . ولم يقرأ صاحب الصحيفة ما كتبه هذا المحرر ، ولم يعرف موضوع التهمة . فلما وصل الى ميناء الاسكندرية التقى القبض عليه ، وحوكم ، وحبس بسبب ما نشره هذا المحرر وهو غائب في اوربا . وقد كان قانون الصحفيين في ذلك الوقت ينص على مسؤولية صاحب الصحيفة لما يكتب في جريدته حتى ولو كان غائبا عنها . وكان هذا بعض الغنت الذى اخترعته الانحاز السوداء في رموس المستبدين والمستعمرين في مصر في وقت ما

ومن هذا الغنت أيضاً أن تختص محاكم الجنايات بمحاكمة الصحفيين في قضايا الجنج . وفي هذا الاحتيال العجيب لإيذاء الصحفيين اشارة واضحة الى الفساد الذى كان هؤلاء الحاكون الفسدة يحاولون التسلل به الى إفساد نزاهة القضاة

وكانت « المطبعة » التي تطبع بها الصحيفة المعارضة موضوعاً آخر للمعاكسات . ذلك أنها تعد « مصنعا » ينطبق عليه تعريف الانجليز بقانون ١٩٠٤ للمصانع المصرية ، وهو أنه « محل مقلق للراحة أو مضر بالصحة أو خطر » ،

وأذكر أنى كنت ، مع شريك ، قد أقننا سنة ١٩٥٠ مطبعة فى قسم الازبكية لطبع صحيفة ، فلم نحصل فى مدى أربعة شهور على الترخيص بإدارتها ، مع أننا كلنا مهندسان متمرنين على شئون المباني كى يقوم بالرسم ويعين المواضع . وجاء طبيب قسم الازبكية فوافق على الترتيبات جميعها . ولكنه عاد إلينا بعد ذلك يقول أن الوزارة تطالب بنقل النافذة ، نافذة المرحاض ، من الجهة الشمالية الى الجهة الشرقية . وأنه لا يعرف علة هذا الرأى . ويسألنا : هل نحن نعرفه ؟

ولم نكن نعرف سوى الغنت الذى كانت الوزارة تهدف منه الى اقفال المطبعة . ونجحت فى ذلك

وفى تلك السنة بالذات فكر وزير الداخلية ، فؤاد سراج الدين ، فى اتخاذ جملة خطوات مشؤمة ، ليست لتقييد حرية الصحف فقط بل أيضاً لإخفاء جرائم فاروق ورجال قصره الدنس حتى لا يقف الجمهور المصرى على الحقائق السوداء التى تمس رجال الحكم فى القصر . وذلك بأن أعد مشروعا لمنع الصحف من نشر أخبار القصر ، أى أخبار فاروق ونازلى ، وبولى ، و كريم ثابت ، وأخبار الرافقات اللاتى كن يرافقن فاروق فى رحلاته الى الاسكندرية أو الصحراء ، وينزل معهن فى الاوبرج بالفيوم ، أو غير هذا الفندق فى الاماكن الاخرى

وأذكر أنه جىء بي من بور سعيد ، محروسا برجل البوليس الى القاهرة كي تحقق معى النيابة العامة بشأن جملة وردت فى مقال لى بجريدة «الشعلة» هذه كلماتها بالنص : « الاوبرج وما أدراك ما الاوبرج » ،

وكان المحقق الاستاذ اسماعيل عوض الذى استطاع أن ينقذنى . ثم يندرنى . و كانت كلمة الاوبرج من الكلمات الحساسة عند فاروق لما كان قد شاع وقتئذ . بأنه يسلك سلوكا شائسا فى هذا الفندق

ولما هاج الصحفيون ، فى شجاعة وشهامة ، على مشروع هذا القانون ، فكر فؤاد سراج الدين فى مشروع آخر فى ١٩٥٠ أيضاً هو « قانون الاشتباه السياسى » ، كى يصبح الصحفي مشتبه حين لا يمكن اثبات تهمه عليه . واستطاع الصحفيون أيضاً أن يثدوا هذا المشروع

وأذكر أن احدى الشركات التى كانت تطبع الكتب الشهرية قد تعاقدت معى حوالى ١٩٤٨ بشأن كتاب قديم لى كانت دار الهلال قد نشرته سنة ١٩٢٦ ، فلما كان بالمطبعة يجرى طبعه ، أوقف الطبع بدعوى أن الكتاب واسمه « أشهر قصص الحب التاريخية » ، يحتوى فصلا عن حب الملوك . وأن فى هذا تعريضاً بفاروق

وفى سنة ١٩٤٥ ألقت كتيبا بعنوان « حرية العقل فى مصر » دعوت فيه إلى منع مثل هذا العنت فى معاملة الصحفيين والاحرار والمؤلفين وعلى القارئ لهذا الفصل أن يذكر أسماء الصحف المسكخة التى

ماتت جميعها لأن المستبدين والمستعمرين لم يطبقوا صدورها .وقد ماتت
يمثل هذه المعاكسات ، في حين أن الصحف المتفرجة ، التي لم تكن
تبالى لخش فاروق ، أو سرقات الوزراء ، أو نهب الاستعمار لكنوز بلادنا
أو تأخر بلادنا في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، هذه
الصحف عاشت وأثري أصحابها حتى أصبحوا يملكون من العقارات
وغير العقارات ما تبلغ قيمته مئات الآلاف من الجنيهات

كيف أفسدت الحكومة الصحافة المصرية

كانت الحكومة المصرية ، أيام الاستعمار والاستبداد ، تمارس ألوانا من الفساد أو الافساد الصحفي يتجاوز الخيال . وهو فساد ، أو إفساد ، لم تعرفه أمة أخرى في هذا العالم كله

فمن ذلك مثلا المصروفات السرية التي كانت ترشوبها الوزارات المتعاقبة الصحفيين حتى ينكروا الحق وينشروا الباطل . والذي ابتدع هذه البدعة هو عدلى يكن الذى هدف منها إلى محاربة سعد زغلول بتضليل رأى العام وشق الأمة عليه عن طريق الصحافة . ولم تلغ هذه المصروفات السرية إلا بعد ثورة ١٩٥٢ . وكان في إلغائها تطهير وتنظيف وكان الغرور والزهو يحملان بعض الوزراء على أن يسخروا سخاء الاغداق على أحد الصحفيين لأنه كان ينشر صورهم في جمال ساحر ، وإن يكن زائفا ، ويصف مآثرهم ، وإن لم تكن مآثر . ويروى القصة تلو القصة بشأن إصلاحاتهم التي لم يكن يعرفها الجمهور إلا في الصحف . واتضح من الكشف الذى أذاعته حكومة الثورة في ١٩٥٢ أن إحدى الصحف الأسبوعية التافهة حصلت على أكثر من ٢٦ ألف جنيه .

وكانت صفحاتها وقفا على الثناء على وزراء الاستبداد . فلا مقال عن العلم أو الأدب أو الصناعة أو الزراعة أو السياسة ، وإنما كل ما كان فيها كلمات رنانة وجمل مرصعة في الثناء على الذين يمنحونها هذه « المصروفات السرية »

ثم كانت هناك رشوة أخرى لافساد الصحفيين هي الاعلانات الحكومية . فصاحب الجريدة المستقل المعارض ، الذي يهدف إلى الإصلاح ولا يفتأ ينادى بقمع الفساد ، يحرم الاعلانات ، أو لا يحصل منها إلا على التافه . في حين أن الصحفي الذي يمدح ويتغنى بعدل المستبد ينال الألوف من الجنيهات . بل إن إحدى الصحف الأسبوعية التي لا يزال يذكرها الصحفيون نالت من إعلانات الحكومة في عدد واحد ما تزيد قيمته على نحو ثلاثمائة جنية

وهذا في الوقت الذي لم تنل فيه صحيفة يومية في أربعة شهور كاملة تصدر فيها كل يوم ، وتباع ، وتذاع ، لم تنل سوى ما قيمته أربعون جنيها . أى بمتوسط عشرة جنيها في الشهر . ولم يكن لهذه الصحيفة من ذنب سوى أن محررها كان رجلا حراً يأبى الثناء الرخيص الكاذب على وزير الداخلية المتصرف

وكانت الاعلانات الحكومية ، التي كان هدفها في الأصل خدمة الحكومة بتثنيه الجمهور أو المقاولين أو غيرهم ، وسيلة لافساد الجريدة أو المجلة . وأذكر أنى حين أخرجت مجلة المصرى في ١٩٣٠ ، وعارضت فيها إسماعيل صدق في سياسته ، عمد إلى التوسل إلى افلاسى بحرمانى هذه الاعلانات . ولم يحرم «المصرى» فقط بل حرمت ١٢ مجلة أخرى

أصدرتها بعد إلغائه

وكننت في تلك الأيام عرضة لزيارات لا تتقطع ، غايثها أن أخضع ،
مع عرض المكافأة السخية ، وهى الاعلانات . ولم أخضع . ولذلك
أفلس جميع المجلات التى أصدرتها

ومشال آخر لرشوة وافساد الصحفيين ، هو اشتراك وزارة
المعارف ، وغيرها من الوزارات في بعض المجلات والجرائد دون
بعض . فقد كان المقياس هنا ليس منفعة الطلبة والتلاميذ أو الموظفين ،
ولكن موقفها ازاء السياسة التى تتبعها الوزارة . فإذا كانت الصحيفة
معارضة ، وتنتقد ، فإنها تقاطع . وإذا كانت موالية ، تمدح ، فإن
الوزارات تشتترك فيها . وكثيراً ما كانت المدارس « تختزن » المجلات
التافهة بألوف الفسخ التى لا تفض غلافات البريد عنها لهذا السبب .
وقد أثرى صحفيون تافهون كثيرون بهذه الوسيلة

ووسيلة أخرى عرفت بها الحكومة أيام الحرب الكبرى لافساد
الصحف ، هى الورق . فإن مقدار المخزون منه في البلاد كان محدوداً
ومقدار ما كان يرد إلينا من الأقطار الأجنبية كان أيضاً محدوداً .
وتعللت الحكومات بهاتين العلتين وتدخلت لتوزيع الورق « بالعدل » .
وكان من هذا العدل أن عومل الموالون الخاضعون بالسخاء وعومل
المعارضون بالتقتير . ويعرف الصحفيون في أيامنا كيف اقتنى بعض
الصحفيين مئات الألوف من الجنيهات حصلوا عليها ببيع الورق في
السوق السوداء

وشاع هذا البيع حتى صار فضيحة مكشوفة ، وحتى صار كثيرون من

الصحفيين تجاراً، يحصلون على ورق الصحف فيبيعونه لأصحاب المكتبات الذين كانوا يحتاجون إليه لطبع الكتب

وألف المرحوم أمين عثمان الوزير الوفدى جمعية «للمداقة» الانجليزية المصرية كان شعارها أننا نحن المصريين قد تزوجنا الأمة الانجليزية زواجاً كاثوليكيّاً لا تفصم عراه . وكان كل من ينضم الى هذه الجمعية من الصحفيين يجد أجود الورق بأرخص الاثمان . بشرط الابقاء على الزواج الكاثوليكي

ولا أكاد أتخيل صورة أفظع من هذه الصورة في افساد الصحف المصرية . وقد فسدت . أو فسد الكثير منها . كما يدل على ذلك هذا الحادث التالى :

ذات يوم دعانى أحد أصحاب الصحف . فلما قعدت اليه ، وأخذنا فى الحديث ، فهمت أنه يرغب فى أن أتولى رئاسة التحرير . وشرع يشى على كثير . ولم يكن عندى ما يمنع من قبول هذا العرض . وجعلنا نتحدث قرابة الساعة عن وجوه الاصلاح فى الصحيفة . وتتناولها صفحة بعد اخرى بالنقد والاقتراح هنا وهناك . ونقترح أسماء لمحربين نحتاج اليهم . وانتهى اجتماعنا بأن أفهمنى بأنه سيكلمنى بالتليفون فى اليوم التالى . وودعته وخرجت

ومضت أيام لم يكلمنى فيها . ولم يعتذر . وصادف لثائق لأحد الوزراء وكانت له به علاقة متينة ، فشكوت اليه هذه المعاملة التى بخسنى بها . فكان جوابه السريع الصريح : « اسمع يا أستاذ . فلان هذا لا يوظف محرراً فى صحيفته إلا بعد استئذان السراى . وأنت تعرف رأى السراى

عنك . فلا بد أنه استشارهم فأشاروا عليه بالألا يجعل لك صلة بصحيفته ،
ولا أنسى أن أقول أن هذه الصحيفة كانت وقتئذ تفهم الجمهور أنها
معارضة للسراى ...

وكان منصب « مدير المطبوعات » من المناصب العليا فى الدولة .
ولكن الحكومة الفاسدة كثيراً ما كانت تعين أفسد الناس وأجهلهم لهذا
المنصب . لأنها كانت تخشى الرجل المستقل النزيه المثقف الذى قد
يأنف مما يطالب منه من اتباع خطط سافلة مؤذية للجمهور أو للصحفيين .
وأذكر أنى قصدت ذات يوم الى واحد من مديرى هذه الادارة لشأن
صحفى ، فلما هممت بالدخول الى غرفته منعنى سكرتيه وأقبحنى أن
هناك مسائل خطيرة جداً يشتغل بها مدير المطبوعات ، وأنى يمكننى
أن أنتظر حتى ينتهى منها

وقعدت مع السكرتير . وطال انتظارى ، فسئمت ، وأخذت
استفسر منه عن هذه المسائل « الخطيرة » التى يشتغل بها مدير
المطبوعات الذى كنت قد خبرته من قبل ووجدت فيه أتعفه
رجل عرفت

ولكن السكرتير رفض أن يوضح . وعندئذ لم أباله ، وهممت الى
الباب واقتحمته . فماذا وجدت ؟

وجدت مدير المطبوعات هذا ، الذى يشرف على الصحف ، ويوجه
الرأى العام ، ويطلب انذار صحيفة والغاء أخرى ، ويقدم الصحفيين
للنيابة العامة ، ويعين مقدار الاعلانات والمصروفات السرية ، وجدت هذا
المدير قاعداً وأمامه عراف مشهور فى القاهرة بأنه يرى الحظ ويتكهن

عن المستقبل عن طريق النجوم والودع . وكان الموضوع الذى حضر
من أجله هو أن يخبر المدير عن التاريخ الذى ستقال فيه الوزارة أو
تستقيل حتى يتمياً بخطط معينة للوزارة القادمة
هذا بعض مما لاقاه الصحفيون من فساد الحكم أيام الوزارات التى
سبقت الثورة

الإعلانات في الصحف

ليس شك في أن الاعلانات التجارية والصناعية والترويجية تنفع القراء وترشدهم . فان ربة البيت تعرف منها مايجد من المخترعات التي تخفف الاعباء المنزلية . كما يجد جمهور القراء فيها دليلا عن المسارح والدور السينمائية ونحوها . وهذا غير مايجده كل منا بشأن لباسه وطعامه وسكنه وسائر حاجاته والاعلانات ، من زاوية أخرى ، تخدم الروح وتزيد الاستهلاك فلا تركد حركة الأسواق

ثم هي بعد ذلك ، تصل بين الصحيفة وبين حركات الانتاج في شتى السلع . فهي من هذه الزاوية ، تنطوى على عوامل تنويرية لمحرفى الصحف أنفسهم لأنها تدلهم على الأحوال الاقتصادية المتغيرة المتطورة وفي نظام انتاجى ، مثل نظامنا الحاضر يقوم على المباداة ، تحتاج المتاجر إلى الاعلان . وأقرب الوسائل إلى ذلك هو الصحيفة . ولذلك أصبحت الاعلانات أعظم الموارد لحياة الصحيفة ، حتى لقد عرف أحد المهتمين الصحف ، جرائد ومجلات ، بأنها « أوراق » قد كتبت عليها اعلانات وفي ظهر هذه الاعلانات أخبار

وعندما تصفح إحدى جرائدنا الكبرى ، مثل الجمهورية أو الاخبار أو الاهرام أو الشعب ، غير المجلات الأسبوعية العديدة ، نجد أن مقدار الورق ، أحياناً ، يزيد ثمنه على الثمن الذى تباع به الجريدة أو المجلة . وعلة ذلك هى الاعلانات . لأن قيمة الاعلان تعوض الدار الصحفية وتجعل الخسارة فى ثمن الورق كسباً فى قيمة الاعلان ونحن القراء نضيق أحياناً بكثرة الاعلانات . ولكن الجريدة التى تبلغ صفحاتها ١٦ أو ٢٠ صفحة لا يمكن أن تباع بأثمانها الحاضرة لولا هذه الاعلانات العديدة التى تسد النقص فى أبواب أخرى من نفقات الصحيفة

وقد حاول أحد الصحفيين الأمريكين أن يتحدى القواعد الصحفية فى الولايات المتحدة فأصدر صحيفة فى واشنطن كان يبلغ عدد صفحاتها ١٦ (فى نصف قطع جرائدنا اليومية) . فلم يعتمد فى عدد واحد على سطر من الاعلانات . ولكنه وقفها بعد أقل من سنتين لوفرة ماخسره فى اصدارها من مال . وصحیح أن الجمهور عند صدورها أقبل عليها ، ولكنه عزف عنها بعد ذلك ، لأنه وجد أن الجرائد التى تستعين بالاعلانات تتوسع فى عدد صفحاتها وتزيد من أخبارها وسائر مرافقها وخدماتها الصحفية أكثر مما تستطيع جريدة بلا اعلانات وللاعلانات ، فى نظامنا القائم ، قيمة تنويرية كبيرة لا تقل أحياناً عما تنشره الصحيفة من أخبار أو مقالات . فان الشركة الجديدة ، فى تجارة أو صناعة ، تحتاج إلى شرح أعمالها القادمة . وهى لا تنتظر الخدمة المجانية من الصحيفة فى هذا الشرح . ولذلك تقوم هى بنشره اعلاناً

أو اعلانات متكررة حتى يقف الجمهور على مشروعاتها ويقدم على شراء أسهمها . وكثيراً ما تظهر هذه الاعلانات في صيغة مقالات والجمهور يستنير بهذه الاعلانات والشركة تلتفع وقد يقال هنا أن الشركة أو المؤسسة التجارية أو الصناعية التي تغزو إحدى الصحف بإعلاناتها تستطيع أن تؤثر في سياستها وتهدها بالحرمان إذا هي أقدمت على اقتقادها بما يؤدي إلى ايدائها ماليا واعتقادنا أن هذا صحيح ، وقد مرت بـ اختبارات صحفية من هذا النوع . فإني أذكر أن إحدى البواخر ارتطمت ، وكان عليها مسافرون مصريون . وتسلبت الخبر بالانجليزية من إحدى شركات الاخبار . وترجمته . ولكن بعد أقل من عشر دقائق جاءنا رسول من مكتب الشركة التي تملك هذه الباخرة وطلب أن نمتنع عن النشر ، وكان التهديد المضمّر أننا إذا نشرنا الخبر أسأنا إلى سمعة الشركة . وعندئذ تقطع اعلاناتها عن الجريدة التي كنت أعمل فيها محرراً ومترجماً . وامتنعت الجريدة عن النشر خاضعة ذليلة . بل حدث ما هو أفدح من هذا . فقد كانت هناك شركة تأمين في التصفية . فرشت الصحف حتى لا تنشر خبر التصفية ، واستطاعت أن تذهب من التصفية قبل أن تؤدي التزاماتها للمؤمنين عندها . ونستطيع أن نزيد

حدث هذا قبل نحو ثلاثين سنة

وبالطبع هذا الامتناع من الصحيفة عن نشر الحقائق خشية أن تخسر الاعلانات يعد اجراماً صحفياً يرفع عنه ويأباه الصحفي الأمين المخلص ..

كما يجب أن تترفع عنه وتأباه الشركة التجارية أيضاً سواء أكانت شركة
بواخر أم شركة تأمين

ولكن في نظامنا الاجتماعى الحاضر مفسد ، تكاد تكون أصيلة
فيه ، وإن يكن هناك من الرجال الاشراف من يستطيعون من وقت
لآخر أن يستعلوا وأن يأبوا الخضوع لهذه المفسد

اعتبر مثلاً جريدة المقطم . فإننا كلنا يعرف الضرر الفادح الذى أنزلته
بالشعب المصرى حين عاشت حياتها وهى تؤيد الاستعمار البريطانى .
ولكن كانت لها فضيلة أخرى لا يعرفها الجيل الجديد الذى سمع عنها ولم
يراها ، ذلك أنها طيلة سبعين سنة أو أكثر من عمرها رفضت نشر اعلان
واحد عن المشروبات الكحولية . وخسرت بالطبع ، بهذا الرفض ،
نحو مائة أو مائتى ألف جنيه . ولكنها إرتضت هذا الخسار إلزاماً
لمبدئها وهو جحد الخور

وشبيه بذلك أيضاً ما حدث فى أيامنا . ففي ١٩٥٣ كستبت الصحف
بشأن احداث التدخين لسرطان الرئة . وكان الأطباء الذين يصدرون
مجلة « بريتش مديكال جيرنال » قد بحثوا هذا الموضوع واقتنعوا بصحته .
فأعلنوا فى يناير من ١٩٥٤ أنهم يرفضون نشر الاعلانات عن السجائر ،
مع أن أقل ما كانت تحصل عليه هذه المجلة الطبية من هذه الاعلانات لم
يكن لينقص عن خمسة أو عشرة آلاف جنيه فى السنة

إن لبعض الصحفيين اخلاقاً عالية

وأعود فأكرر القول بأن نظامنا الاقتصادى الحاضرة ، نظام
المباراة ، يحتاج إلى الاعلانات ، وربما لا يستطيع البقاء بدونها . ولكن ، فى

نظام آخر ، مثل روسيا ، ليست هناك حاجة إلى إعلانات في الصحف .
ولذلك تصدر جميع جرائدها ومجلاتها بلا اعلان واحد . ونظامها
الاقتصادى لا يحتاج إلى ذلك . فان أحد الأسس الذى تنهض عليه
فكرة الاعلان هى أن « سلعى أفضل وأرخص من السلع التى
يبيعها غيرى »

وليس هناك مباراة في البيع في روسيا . وإذن لا حاجة إلى
الاعلانات . وقد ذكرت مثالين عن اساءة الاستعمال في الاعلانات ،
وهما مثال شركة التأمين ومثال شركة البواخر ، ولكن في ظنى بل يقينى
أن أعظم من أساء الاستعمال للاعلانات في الصحف هو الحكومة
المصرية في عهدها اللعين البائد أيام الوزارات الاقطاعية

فقد كانت الاعلانات توزع على الصحف المصرية ، لا للاتفافع
بانتشارها حتى تصل إلى المحتاجين إليها فيعرف منها المقاول مثلاً أخبار
المزايدة أو المناقصة أو نحو ذلك ، وانما كانت توزع بالمحاباة الصريحة
بحيث تعود هدية أو رشوة من أحد الوزراء لأحد الصحفيين فحسب .
أما خدمة الدولة في مصالحها المالية فلا شأن لها أى شأن في نظر الوزير .
بل كانت هناك مجلات اسبوعية لا يتسكف اصدار العدد الواحد منها
خمسین قرشا يحمل من الاعلانات الحكومية ما كانت تبلغ قيمته عشرين
جنيهاً أو أكثر

وبعض الجرائد ، في بعض الأحيان ، يزيد ثمن الورق الذى تطبع
به على ثمنه وهو جريدة مطبوعة . بل يزيد أضعافاً في بعض الأحيان .
وانما يحصل أصحاب الجريدة على الربح من الأجور العالية للاعلانات

بل يحدث أكثر من ذلك . فان بعض المصانع والمتاجر والمؤسسات المالية تؤسس الجرائد وتغذوها بالمال حتى تنتشر . ويكون القصد خدمة هذه المصانع والمتاجر والمؤسسات . وإلى الآن لأعرف مثل هذه الحالات ، لحسن الحظ ، في مصر . ولا ينتظر أن يحدث مثل ذلك في مصر إلى سنين عديدة قادمة . فان رأس المال ، في أوربا وأمريكا ، من القوة والحيلة والدراية بحيث تمتد شبكا كه إلى الصحف فيستغلها . ولكنه لا يزال ضعيفا في مصر

وقد قلت أن الاعلان كثيراً ما يؤدي إلى التنوير ، خاصة إذا كان بشأن مشروع جديد يحتاج إلى العناية . ولكني أعتقد أن الاعلانات في مجموعها تنتهي إلى التثوير وليس إلى التنوير ، وأن تكن مع ذلك ضرورية في نظام المباراة الذي نعيش فيه . ولو أن حكومة ما ، من حكومات رأس المال ، حزمت رأيها ومنعت الاعلانات في الصحف لكانت شكوى القراء أكبر من شكوى أصحاب رأس المال . إذ ليس لنا طريق إلى الوقوف على السلعة التي نريد شراءها غير الجريدة والمجلة في الوقت الحاضر

ولعل من المفيد أن نقول أن تدريس فن الاعلان يلقي في بعض الجامعات اهتماماً أكبر من تدريس فن الصحافة . وهذا معقول ، إذ هو يتفق ونظام مجتمعنا القائم على المباراة في التجارة والصناعة

الأسلوب في الصحافة

حين أعود بهذا كرتى الى الستين سنة الماضية فى حياتى ، أى منذ شرعت أقرأ وألثقت الى الصحف ، أجد أن الأسلوب السهل المنير ، الذى وصلنا اليه فى الكتابة بلغتنا العربية ، لا يعود الفضل فيه الى معاصى اللغة فى المدارس ، بل لا يعود الفضل فيه حتى الى الكتاب « الادباء » القدامى ، وإنما الفضل فى هذا الأسلوب يعود الى الصحف ذلك أنها ، لإضطرارها الى السرعة فى ايراد الخبر ، احتاجت الى أن تختار من الكلمات والعبارات ما تسهل كتابته وقراءته معا . اذ لم يكن يتسع الوقت للخبر أو المحرر أن يتظرف بكلمات السجع أو المجاز أو أن يتبخر بالعبارات الموسيقية المزينة التى كان يعتقد أنها فنية وربما كان خير من ألف بأسلوب عربى سهل ، فى غير الصحافة ، هو قاسم أمين . وإن كنت أنا أعد مؤلفاته من الصحافة ، اذ هى جميعها تعالج مشكلاتنا المصرية العصرية . ويليهِ لطفى السيد فى الأسلوب الدقيق المحكم

وصحفنا تكتب هذه الايام بلغة شعبية. ولو شئت أن أعين شخصا

كان له فضل هذا التوجيه لقلت أنه محمد التابعى . فانه هو الذى اخترع لنا « الخبر المقالى » أو « المقالة الخبرية » فاحتاج الى أن يجعل الكتابة أقرب ما تكون الى الكلام . فأحدث اسلوبا يجرى بالقراءة . وزاد عدد القراء للصحف

وليس معنى هذا أنها ابتذلت فى اسلوبها وأخبارها حتى صارت عامة . وانما هى جذبت ، بسهولة الاسلوب الكتابى الذى لم يتبعته وطريقة ايراد الخبر ، والتنويع فى وسائل الامتاع الصحفى بالصورة الفوتوغرافية والصورة السكاريكاتورية ، والعناية بالاخبار النائية ، جذبت فريقا من القراء لم يكونوا يحنون قبل صدورهما بالسياسة العالمية والاخبار الصحفية . فكانت لهم بمثابة المدرسة التى شغلتهم بثقافة جديدة ترفهم عن اللهو الرخيص الذى كانوا يمارسونه حين لم يكونوا يجدون ما يجذب من الصحف

وليس هذا نزولا الى العامة وانما هو رفع العامة الى مستوى الشعب ونحن جميعاً شعبيون . نطالب الحكومة بأن تكون شعبية كما نطالب بتعليم الشعب كله . بل نطالب بأن يكون الشعب هو صاحب الكلمة العليا فى تقرير السياسة الداخلية أو الخارجية

ولذلك يجب علينا نحن الصحفيين أن نتحمل مسؤولية تنوير الشعب . وأولى الوسائل لهذا التنوير أن نكتب بلغة يفهمها الشعب ، لغة سهلة نبليغ بها المعنى العميق دون أن نحتاج الى الغريب الحوشى من الكلمات التى تصد القارىء

وقد كانت صحفنا ، أيام اللواء والمؤيد ، تكتب بلغة تعالو أحيانا

على فهم أفراد الشعب . ولكن السرعة ، التي تطبع الصحافة بطايعها ، جعلت الكتاب كما قلنا يكتبون كما يتحدثون . فكان هناك اتجاه يقوى عاما بعد عام نحو أسلوب شعبي انتقل بعد ذلك من الصحافة الى الادب والصحفى العظيم ، كما أحب أن أكرر القول ، هو ذلك الذى يرفع الصحافة الى الادب . إذ أن الصحافة يمكن فى اعتبارات عديدة أن تعد من الادب . وهى واقعية شعبية بطبيعة أهدافها ووسائلها . ولا يسكاد يوجد أديب فى مصر لم يعمل فى الاثنين : الادب والصحافة ولكن كما أن عندنا أدباء غير شعبيين يحبون ؟ « الصعب » ؟ من الاساوب ، ويبحثون عن موضوع للدراساتهم فى مجتمعات نائية فى التاريخ غير مجتمعتنا ، كذلك كان عندنا كتاب صحفيون يحاولون أن يكتبوا بأسلوب «صعب» ، وكأنهم ينظرون الى الصحيفة كما لو كانت مقصورة على الخاصة دون الشعب

وقد استطاع محررو الصحف أن يهتدوا الى اسلوب شعبي ، لا هو عامى ولا خاص ، يفهمه جمهور الشعب ويفرجه بالقراءة اليومية وهذا التوخى للسهولة هو أيضاً الذى بعث الى ايجاد الالوان المبسطة للعوام والآداب والشئون النسوية . بل ان الاطفال أيضا قد وجدوا نصيبا فى هذا التبسيط

وهناك قاعدة يجب ألا ننساها . هى أننا نكتب وفق ما نشأنا عليه من اتجاه أخلاقي ، وأيضاً وفق الاحوال السيكلوجية التى تتكون بها ونسير فى تياراتها . فاذا كنا من الشعب ، نكتب للشعب ، فانه لا مفر من أن نكتب بلغته . ولكن ليس معنى هذا أننا نكتب بالعامية ، لان

الكاتب فنان قبل كل شيء ، والعامية تخلصوا من الفن
والكاتب الذى يلتزم أسلوب الجاحظ أو ابن المقفع من الكتاب
القدامى يحيا فى مناخ قديم . ولذلك أيضا تجد أن أهواءه وأغراضه
تنأى عن الشعب . بل هو حين يؤلف كتابا يتخذ موضوعا من
موضوعات القدماء التى لا تمت الى الشعب . وهو ينعت هذه الموضوعات
بانها « ثقافة »

والثقافة عند هؤلاء الكتاب أن تهتم بثورة الخوارج على الخلفاء
وتؤلف عنها ، ولكن لا تهتم بثورة مصر ، بل ثوراتها ، ولا تبالى أن
تكتب عنها شيئا . وعندما تكتب عن الخوارج فانك تتخذ الاسلوب
الذى فى هذا المناخ الناقى عنا .

وقد كان هذا حال صحفنا قبل نحو ثلاثين سنة حين كنا نجد فيها
أبحاثا ودراسات عن مشا كل تاريخية قديمة . أما مشا كنا نحن فلم
يسكن هؤلاء الكتاب يعنون بها أقل عناية . بل كانوا حين يكلفون
كتابة مقال افتتاحى ، يتجهون فى عناية خاصة إلى اتخاذ اسلوب قديم
يتميزون به ، كأنهم يأنفون لغة الشعب واهتمامات الشعب

لقد قرأت اللواء والمؤيد وأنا طالب فى المدارس الثانوية . وعرفت
المقال يكتب مسهبيا بلغة عكاظية فى نحو خمسة أو ستة أعمدة . والخبر
ينشر بلا عنوان . وأحداث الدنيا تنحى فى زاوية تحت عنوان واحد
وهو : تلغرافات خارجية . ولا تزيد على ربع عمود
ثم جاءت ثورة ١٩١٩ فأكسبت الشباب أهدافا . وارتفعت بهم

الى معان جديدة من الفهم وبسطت أمامهم آفاقا . وظهرت صحف تغذوهم وتحاول إشباعهم بالصورة والخبر والمقال ولكن الصحف المصرية التي تعد السياسة موضوعها الاول لمصطدمت بالسياسة ، فلم تكن ترفع رأسها وتشهر أقلامها لمسكافة الاستعمار أو الاستبداد حتى كان المستعمرون والمستبدون يسدون اليها سهامهم القاتلة . وقتلوا عشرات من الجرائد اليومية والمجلات الاسبوعية . وما هو أن كانت الحكومات الماضية تعرف في احدى هذه الصحف نزعة قومية أو تطرفا وطنيا حتى كانت تتعقبها هي ومحرميها الى أن تقتلهم جميعا

فقتلت جرائد الحزب الوطنى كلها . وقتلت د الاخبار ، التي كان يحررها الرجل الامين أمين الرافعى . ولا أنسى أنه عطلت لى في سنة واحدة هي سنة ١٩٣٠ اثنتا عشرة مجلة اسبوعية . وعطلت جرائد المرحوم عبد القادر حمزة جملة مرات . وأصدرت قوانين جعلت احترام الصحافة يشبه احترام الجريمة في نظر القضاء ومرت على مصر سنوات سود لم يكن يظهر فيها من الصحف سوى تلك التي كانت تنحى رؤوس أصحابها ومحرميها . وكاد الصحفى المصرى يلغى من الوجود ، إذ هو متهم على الدوام بتهمة الوطنية

ولكن رويداً رويداً تغيرت الدنيا، دنيا الصحافة فى مصر، ورويداً رويداً رأينا شبابا جديداً يأخذ بألوان من النشاط الصحفى لم نعرف مثله قبل ١٩٣٠ و ١٩٤٠ . وحرث الاستاذ التابعى حقلا

بالخبر المقالى أو المقال الخبرى ، وبالصورة الكاريكاتورية التى
ليس لها عنوان ، ولكنها تنطق بل تصرخ بالمعنى أو تطلعن ضحيتها
كما لو كانت سكيناً . ثم جاء بعده ، ونقل عنه ، من زرعوا
هذه الأرض المحروقة

رديلة صحفية : تملق الجماهير

يقرأ أفراد الجمهور الصحف كي يستنيروا بالأخبار ويسترشدوا بالمقالات ويستمتعوا بالصور والطرف. فالصحيفة ارشاد وتربية ولأمتاع ولكن إذا كانت الصحيفة تعتمد على التضليل بدلا من الإرشاد، فإن حقها في البقاء يسقط. ويجب أن تجد الصدود الذي يؤدي إلى سقوطها

والصحافة في يد الكاتب الصحفي العظيم ترتفع إلى مقام الأدب، بحيث تهدف في أخبارها ومقالاتها وسائر وسائلها إلى الإنسانية. فلا تدعو إلى البغض، ولا تحرك حوافز الحرب، ولا تقول بتعصب عنصري أو ديني، ولا تغري القراء بمخاطبة غرائزهم السفلى ولكن هناك رذائل كثيراً ما يقع فيها الصحفي أو بالأحرى ينزل إليها. فانه، لحرصه على أن يصل إلى أكبر عدد من القراء، يميل بسليقته الصحفية إلى أن يقول ما يرضيهم ويتجنب ما يكرهون من الأخبار. بل هو قد يسرف في هذا الاتجاه حتى ليملق الجماهير، فيطبخ الأخبار الكاذبة وينشرها كما لو كانت حقائق. وهنا الضرر العظيم

وبكلمة أخرى نقول أن هذا الصحفي ، بدلا من أن يربى الجماهير ، ويرفع بهم ، ويصلح نفوسهم ويرشدهم ، بدلا من هذا يعمد إلى تملقهم ويكذب عليهم ويضللهم

وقد رأينا كثيراً من هذا التضليل في الصحف المصرية في السنوات القليلة الماضية . فأنى مازلت أذكر تلك الأضاليل التي كانت تنشر على القراء في صحف يومية كبيرة بشأن الحرب بين إيطاليا وإثيوبيا قبل الحرب الكبرى الثانية . فإن بعض الصحفيين أحسوا بأن جمهورنا يستنكر العدوان الإيطالي ، أيام موسوليني ، على هذه الدولة الصغيرة . وكان بالطبع يحزن لكل خبر يصدح إحساسه وحبه لإثيوبيا . وعندئذ شرعت بعض الصحف تغزو هذا الإحساس بأكاذيب مخترعه تقول فيها أن الإثيوبيين قد هزموا الإيطاليين . وأن عدد القتلى من الإيطاليين يعد بالآلاف والالوف بينما عدد القتلى من الإثيوبيين لا يزيد على الآحاد والعشرات

وكان القراء المساكين يصدقون هذا القول وينخدعون وبالطبع كان هناك من القراء من يعرفون أن دولة عصرية ، بل فاشية حربية ، مثل إيطاليا ، لها من الطائرات والدبابات ووسائل النقل والقنابل والجنود المنظمين ، لا يمكن أن تنهزم أمام دولة بدائية لا تزال تفهم الشجاعة والانتصار على أنها يقتضيان المهارة في الفروسية ، كما كانت الحال في إثيوبيا حوالى ١٩٣٦ ، حتى ولو كانت إثيوبيا على حق وإيطاليا على باطل . ثم جاءت النهاية المخزنة بالهزيمة المنكرة التي أدهشت القراء الواهمين المخدوعين . وكان يجب على هذه الصحف ،

التي تملتق الجماهير وغادعتها ، أن تصرح بالحقائق ، وأن تنذر وتُحذر ، وتوضح العبرة لنا من الهجوم الإيطالي على اثيوبيا . وأعظم العبر لنا في مصر من هذه الحرب أن الشجاعة والوطنية والقروسية والتضحية ليست لها قيمة كبيرة ، في الحروب العصرية ، إزاء الاستعداد بالطائرات والدبابات والمدافع والأساطيل وإيجاد المصانع التي تصنع هذه الأسلحة والاعتدة ، بحيث لا تحتاج الدولة المحاربة إلى أن « تنسول » وتتضرع في أسواق العالم كي تشتري ما تحتاج إليه منها . وقد تتعرض للرفض

وحدث بعد ذلك شيء قريب من هذا ، ولكنه كان أكبر خطورة علينا . ذلك أننا في عام ١٩٤٨ ، عندما دفعنا فاروق المجرم إلى حرب فلسطين بلا أدنى استعداد ، ودون أن يستشير حتى وزراء الدولة وقتئذ ، ولانذكر البرلمان . وعندما انهزمنا في هذه الحرب ، بقيت الصحف توهم الجمهور أننا منتصرون . واتفقت على أن تصف إسرائيل بأنها الدولة « المزعومة » . أي أنها بدلا من أن تصارح الجمهور بالحقائق ، وأن توضح لنا أننا انهزمنا لأننا كنا غير مستعدين للحرب ، وأن فاروق وطغمته الفاسقة كانت تتجر بالأسلحة الفاسدة وتسلبها لأنثانا فيقتلون ، أصرت على أن توهم الجمهور بأننا انتصرنا

أعلن فاروق الحرب على إسرائيل دون أن يستشير الوزراء أو البرلمان . وكان هذا الاجراء وحده يكفي لخلعه أو محاكمته والحكم عليه بالاعدام . فقد زج بنا هذا الوغد في حرب ونحن على غير استعداد . وانما كنا على غير استعداد لأنه هو ، أي فاروق وطغمته ، كانوا يتجرون بشراء الأسلحة الفاسدة وينسبون . وكانوا مطمئنين إلى هذا

السلوك لأنهم لم يجدوا الصحفيين أو الكتاب الذين يجروون على أن يقولوا لهم : قفوا . بل أكثر من ذلك ، فان فاروق وجد كتاباً وأدباء يمدحونه ويرفعونه إلى السماء

هذه الرذيلة ، رذيلة الصحفي أو الكاتب حين يخدع الجمهور ويكذب عليه ويضله ، هي أسوأ الرذائل الصحفية والأدبية . لأن الصحافة تغدو عندئذ وسيلة لنشر الأوهام والجهالات بدلا من نشر المعارف والأخبار وقد عادت الصحف المصرية ، وأعني بعضها ، إلى مثل هذه الأكاذيب في معركة القنال ، حين شرعنا نضيق على الانجليز المحتلين حتى نضطرهم إلى الجلاء عن بلادنا . ولم نكن في حاجة إلى أن نخترع الأكاذيب ، فان الشعب أبدى من الشجاعة ما يتجاوز الوصف . ولو أن الانجليز كانوا يقتلون منا عشرة أو مائة ازاء جندي انجليزي واحد فقتله نحن لكان لنا الفخار والمجد . لأننا كنا عزلا أو نكاد نكون كذلك ازاء قوات قد أعدت ودربت لسفك الدم في كل مكان في هذه الدنيا التي كابدت وماتزال تكابد كوارث الإنسانية في الامبراطورية البريطانية

فقد نشرت صحيفة يومية كبرى، في ٢١ من نوفمبر من ١٩٥١ ، أن الفدائيين المصريين قتلوا ٨٢ بريطانيا . وكانت كاذبة مضللة . لأن جميع من قتلناهم في معركة القنال في ثلاثة شهور لم يزد على ١١ جنديا وكتبت هذه الصحيفة نفسها في اليوم التالي ، أي ٢٢ نوفمبر ، تقول أن الفدائيين المصريين قد دربوا الافاعى على الهجوم على الانجليز . بل دربوا القنط

وكان هذا قمة التهتك الذي تبليغه صحيفة في التضليل بالجمهور :
وهو لا يقل عما سبق أن ذكرته الصحف بشأن الجمل الذي فر من مجزر
مصر القديمة وما زال يبدو حتى وصل قصر عابدين يستغيث بفاروق .
فأعانه . وأنشأ أحد « الشعراء » من أعضاء مجمع اللغة العربية قصيدة
يشيد فيها بعظمة فاروق ويذكر هذا الحادث دليلا ناصعا على هذه العظمة
أى تضليل أكبر من هذا للجمهور المصرى بما كتبه هؤلاء
الصحفيون والادباء ؟

وأعجب من هذا كله أنه في الوقت الذي كان بعض الصحف يشيد بما
يقوم به الفدائيون المصريون من ألوان الشجاعة والتضحية في مكافحة
الجنود الانجليز في القنال ، كان وزير الداخلية فؤاد سراج الدين يلقي
القبض عليهم وينقلهم إلى القاهرة ...

لقد كان التضليل عظيما . ودفعنا ثمنه بعد ذلك غاليا . بل غاليا جدا .
في يوم ٢٦ يناير من ١٩٥٢ عندما حرقت مدينة القاهرة

الصحافة المصرية في نصف قرن

ان أول وجداني بالصحافة حوالى ١٨٩٧ أو بعد ذلك بقليل . فقد كان المؤيد واللواء يباعان ويقرأهما الوطنيون ويتحدثون عنها . كما كان المقطم مقروئاً من طبقة الموظفين المصريين . وكانوا يقرأونه كى يقفوا منه على أخبار الحكومة من مشروعات أو ترقيات أو تنقلات ولم يكن المؤيد واللواء من صحف الأخبار، إذ كان كلاهما يعتمد على المقالة . أما الخبر فكان له المحل الثانى . وكانت مقالة اللواء نارية تستفز وتستثير الجمهور بشأن الانجليز والاستعمار . فى حين كان المؤيد وقوراً وزيناً . ولذلك كان الأقبال على اللواء عظيماً من الشبان والطلبة

وربما كان أعظم ماتتهم به الصحف المصرية فى السنين العشر الأولى من هذا القرن تقصيرها فى نشر الأخبار الخارجية ، بحيث كان القراء يجهلون التطورات العالمية ويعجزون عن وضع مشكلة الاستقلال المصرى فى أبعادها العالمية الصحيحة

وانى لأذكر أنى كلفت التحرير فى اللواء فى سنة ١٩٠٩ ولا أكاد أذكر أنه كان يعاوننا وقشد مخبر . إذ كنا كلنا نكتب المقالات . وعلى

كل حال إذا كان هناك في ذلك الوقت مخبرون فإن غيابهم عن ذا كرثي يدل على أنهم كانوا في مكانة ثانوية لا يلتفت اليهم كثيراً
كما أننا لم نكن نغنى بالآخبار الخارجية . فإن شركة روتر كانت تزودنا ببعض هذه الآخبار فننشر منها نحو ثلث أو نصف عمود . ولا كنا نغنى برسائل يومية مسببة من طنطا أو كفر الزيات أو اسيوط وظهرت في السنين الأولى من هذا القرن مجلة فكاهية تدعى «حمارة منيتى» . وكان موضوعها الأساسى سب الشيخ محمد عبده ، لأنه كان على خلاف مع الخديو عباس باشا . ولكن لم تكن بها صورة كاريكاتورية واحدة . وبقينا أكثر من خمس عشر سنة بلا مجلة كاريكاتورية حتى أخرج المرحوم سليمان فوزى مجلة «الكشكول» وكان موضوعها الأساسى سب سعد زغلول وكبار الوفديين . وهى أولى المجلات التى صورت بالألوان . ولكن اخراجها لم يكن متقنا ذلك الاتقان الذى عهدناه من مجلاتنا المصنورة فى السنوات العشر الأخيرة . وفى السنوات الخمس الأولى من هذا القرن كانت الأفاق السياسية والاجتماعية فى المجتمع المصرى مقصورة على التيارات الجديدة التى أوجدها الشيخ محمد عبده فى ضرورة تعميم الروح العصرية فى الأزهر وفى دعوة قاسم أمين إلى تحرير المرأة وإلغاء الحجاب . ثم فى تنبيه الرأى العام إلى مكافحة الانجليز بقلم مصطفى كامل . ولم يكن القارىء يجد موضوعا فى الصحف يكاد يخرج عن الاهتمامات التى كانت تهتم هؤلاء الثلاثة . وكان لنا الحق فى ذلك لأن هؤلاء الثلاثة مسوا النفس المصرية فى أعماقها وسكبوا الضوء على مشكلاتها الأساسية

ولكن الوجدان السياسى فى ذلك الوقت كان ناقصاً جداً . فان كلام مصطفى كامل صاحب اللواء وعلى يوسف صاحب المؤيد كان يفهم الاستقلال على أنه أخراج الانجليز مع البقاء داخل السلطنة العثمانية وكانت رسالة الأستانة أى استامبول تنشر كل يوم تقريباً فى المؤيد أو اللواء . بل ان المؤيد حين انشئ البرلمان التركى تسأل . . لماذا لانرسل نواباً مصريين إلى هذا البرلمان ؟ وكان هذا حوالى سنة ١٩٠٧ . وكان المقطم نفسه ينشر كل يوم مناقشات البرلمان التركى ويملاها صفحته الأولى . وكان لابد اذن من أن يوضح هذا الوجدان السياسى بحيث تنزه الدعوة إلى الاستقلال من هذا الانحراف نحو الحماية التركية . ولذلك وجد أحمد لطفى السيد اقبالا عظيما من الجمهور المستنير عندما دعا إلى أن تكون مصر للمصريين لا للاتراك ولا للانجليز . ومع أن هذه الدعوة تكاد تكون فى وضوحها وصحتها تافهة لاتستحق مناقشة فانها وجدت مكافئة من كثيرين من القراء الذين لم يسمعوها بها قبل ذلك والذين تعودوا على أن مصر جزء من السلطنة العثمانية اغتصبه الانجليز . وكان ظهور « الجريدة » التى أنشأها أحمد لطفى السيد للدفاع عن هذه البديهة فى سنة ١٩٠٧ . وقد ربت الرأى العام تربية جديدة . وحاولت أن توجد فى مصر اتجاهها فى السياسة والاجتماع يشبه ذلك الاتجاه الذى قام به الحريون فى أوروبا فى القرن التاسع عشر ، أى الحكم الدستورى ونشر التعليم العام وحرية الضمير وسفور المرأة . وهذا المذهب هو وسط بين المحافظين والاشتراكيين

ولكن « الجريدة » ماتت فى سنة ١٩١٥ ليس لأنها كان ينقصها القراء

ولكن لأن الأحكام العرفية جعلت بقاءها محالاً . وهنا يجب أن أقول أنه من سنة ١٩١٤ إلى الآن خضعت الصحف المصرية للرقابة التي كانت تمنع نشر سطر واحد غير مصدق عليه . ست عشرة سنة كانت فيها مبيحة ، بل كان الذكاء المصرى فيها مقيداً ، وذلك فى أثناء الحرب الكبرى الأولى والحرب الكبرى الثانية اللتين خيمت فيها الأحكام العرفية على بلادنا

وبالطبع لا يمكن أن ينتظر للصحافة تطور أو ارتقاء وهى خاضعة للرقابة قد أصلت على رأسها سيف الأحكام العرفية . ولذلك يجب أن تقتطع هذه السنين من عمرها كأنها لم تعيش فيها . بل يجب أن تقتطع من عمرنا نحن رجال الذهن . وفى الحرب الأولى الكبرى ظهرت أولى المجلات المصورة ، وهى «اللطائف» للأستاذ إسكندر مكارىوس . وربما كانت هى الأولى فى اتخاذ الفن الصحفى وحده أساساً لنجاح الصحيفة ، إذ لم تتخذ دعاية معينة بل كان كل اهتمامها محصوراً فى نشر الأخبار والمقالات المصورة

وأدخل أصحاب «الهلال» آلات الروتوغرافور لأول مرة فى مصر حوالى ١٩٢٣ ، فأحدثوا بذلك نهضة بل وثبة فى الطباعة أدت إلى نهضة عامة فى الصحافة . فان الارتقاء الفنى شرع يجذب اليه جميع الصحفيين . وكان لهذا أثر كبير فى توجيه الصحفى وتكوين ثقافته ، فان المقالة غابت عن أنظار القراء وأخذ مكانها الخبر الساذج أو الخبر المصور . بل ان الوف القراء الذين جذبهم هذه المجلات المصورة الجديدة لم يكونوا قبل ذلك من قراء الصحف ولم تكن لهم ألفة بالمناقشات الصحفية

والخصومات السياسية . ولذلك قنعوا من المجلة المصورة بالصور والتافه من الأخبار . وظهرت عقب ذلك صحف الطرائف التي تفسر خبر الرجل الذي يعرض الكلب بدلا من الكلب الذي يعرض الرجل وهذا عامل آخر لاستطيع اعماله فإن الدور السينيمائية التي جذبت الوف الأفراد من الشعب ، أميين وعاميين وقارئين ، هذه الدور بما لها من قوة مالية بالاعلان في الصحف ومن اغراء جنسى لا يمكن التغاضى عنه ، هذه الدور السينيمائية قد أثرت في الصحف تطورا وارتقاء . وقد يكون هناك من يقول عكس ذلك

فان الصحف شرعت تجارى الفن السينمائي بنشر الصور الرائعة للممثلات والتحدث عن التمثيل ، وليس شيء يساعد على نشر المجلة مثل صورة بالروتوغرافور لإحدى الممثلات المحبوبات التي تجمع بين جمال الوجه وبراعة التمثيل

والحق أن اعتماد الصحف على الصورة الجميلة قد جعل الكاتب العظيم في المكانة الثانوية . بل أصبح الشاب الذي يرشح نفسه للصحافة ويغنى احترامها يقنع بدراسة موجزة ولا يتعب نفسه بالعمق الثقافى . لأنه يعرف أن صاحب المجلة لن يطلبه ولن يكافئه بأكبر الاجر لأنه مثقف وانما لأنه قادر على جذب القراء وبيع أكبر عدد ممكن من المجلة باختيار الصور المشرقة والأخبار المقلقة

وهنا أستطيع أن أذكر ، للمقارنة ، أن العتبة الأولى التي وضعت قديما عليها كي أحترف الصحافة كانت مقالا فلسفيا في المقتطف عن « نيتشه وابن الانسان » في سنة ١٩٠٩ . واني واثق أن هناك عشرات من

الصحفيين في المجلات الأسبوعية المصورة ، بل من رؤساء التحرير لهذه المجلات ، لا يدرون شيئاً عن هذا الموضوع الذى كتبت عنه قبل أربعين سنة وجعلته مدخلا فى الصحافة المصرية

وليس شك فى أن الارتقاء الفنى فى الطباعة بالتقنيات قد أحدث اهمالا إلى حد بعيد للتحرير . وقد تقهقرت مجلة المقتطف ، وتغير الهلال من مجلة جديدة لاتبالي أن يبلغ المقال فيها خمس عشرة صفحة من القطع الكبير إلى مجلة مصورة لا يزيد المقال فيها على ثلاث أو أربع صفحات . وماتت مجلة المصرى، ومن قبل ذلك ماتت المجلة الجديدة . وكل هذا لأن هذا الاتجاه الذى ذكرت بشأن الارتقاء الفنى قد جعل العناية بالتحرير الذى لا يتصل بالصورة معدوم القيمة . كما أن المقالة قد نبتت أو أوشكت على الالغاء من الميدان الصحفى كله . على أنه تلقاء هذا التقهقر فى التحرير قد تحققت ميزات جديدة للصحافة المصرية غير ما أشرت إليه من الارتقاء الفنى فى الطبع . فمن ذلك مثلا العناية الكبيرة بأبناء العالم . والفضل فى ذلك للحريين الأخيرتين . فإنهما أثارتا الاستطلاع وأصبحت أخبارهما مقدمة على الأخبار الداخلية ، وثبتت من ذلك عادة جديدة عند القراء هى الاهتمام بأخبار العالم . وأصبح الاستقلال أرقينا السياسى والاجتماعى ينظر اليها فى ضوء هذه الأخبار العالمية . ولم ينقص هذا من روح الكفاح للاستقلال . ولكن الصحيفة القديرة مثل اللواء أو المقطم أو المؤيد قبل سنة ١٩١٠ كانت تعد قروية محلية بالمقارنة إلى جرائدنا اليومية الكبرى هذه الايام

للأشخاص منطقهم الذى يحكون به على الأشياء والناس . ولكن
 للحوادث منطقها الذى يتغلب على منطق الأشخاص . هذا هو مايجب
 أن نذكره حين تتأمل صحافتنا فى الحسین أو التسین سنة الماضية . فان
 الصحفي قد ينشئ صحيفة يومية أو اسبوعية . وينوى أحسن النيات .
 ويعتقد أنه سيجعلها الجريدة أو المجلة المثلى . ولكن لا يكاد ينتهى
 العام الأول من صدورهما حتى يجد أن منطق البيع (أى القراء) ومنطق
 الاعلانات (أى المتاجر) يتغلبان على منطقهم هو ، وإن يستطيع
 الصمود ازاء الخسارة إذا رفض الخضوع لهذين المنطقين الآخرين
 ثم هناك الطبقة الجديدة من القراء التى لم تتعلم إلا فى المدارس
 الابتدائية والالزامية ، كيف نغريها بالقراءة ؟ ان وسيلة ذلك هى الخبر
 والصورة وليس المقال والارقام . انى عندما أقارن بين اللواء (الذى
 عملت فيه محرراً سنة ١٩١٠) والمؤيد والجريدة ، وبين جرائدنا الآن ،
 أحس الفارق العظيم فى ارتقاء صحفنا الحاضرة على الرغم من كل
 ما توصف به من التجارية والمنفعية
 وأعظم ما خدمت به جرائدنا الحاضرة جمهور الشعب عنايتها
 بالخبر ثم ربطها بالخبر بالمقال
 فالمقال خبرى والخبر مقال . وبهذا العمل بعثت بين القراء تنبها
 جديداً ووعياً للحوادث ما كان ليعرفه جمهورنا قبل نصف قرن .
 واستنار الشعب بذلك
 وظنى أن هذا الاتجاه سيزداد قوة واندفاعا عندما نجد قبل عشر
 سنوات نحو نصف مليون قارئ للجرائد والمجلات فى مصر . لأن

أربعة أخماس من هؤلاء سيكونون من خريجي المدارس الابتدائية الذين يحتاجون إلى الصورة المغربية والخبر القصير والمقال الموجز المثير. وعندى أن الصحفي العظيم يجب أن يعرف لغتين أجنبيتين ، وأن يزور نحو عشرة أقطار كبرى ويمكث فيها السنوات للتعليم والمراسلة الصحف. وأن يتعلم الأدب والعلم والسياسة كما يتعلم كتابة الخبر واستقصاء الخبر ، وتحسين صحفنا كل الاحسان إذا بعثت بكتابها ومخبرها كل منهم نحو ستة شهور أو سنة كاملة في قطر أجنبي . بل لماذا لا تتبادل الصحف كتابها ومخبرها كما تتبادل الجامعات ؟
اعتقادي أن الفكرة حسنة ولكننا لم نرتفع إليها بعد

الكفاح في صحيفة اللواء

أكاد أقول أن كل صحيفة ليس لها كفاح معين تفقد حقها في البقاء
ولست أنكر أن للخبر ، محض الخبر بلا توجيه ، قيمة تربوية
كبيرة . ولكن شروء الدنيا كثيرة ، والجريدة التي تقنع بالوقوف منها
موقف المحايد المتفرج ، والتي تقنع بإيراد الأخبار لحسب ، هذه الجريدة
توحي إلى قرائها حياداً ذهنياً وفلسفياً يؤذيهم في حياتهم ويجعلهم
منفصلين من شؤون الدنيا ومشكلاتها

فما بالك اذن بصحافة تحايد وتتفرج على مصر وأحداثها في سنى
كورشها ، منذ شرع الانجليز يفتكون بروحها وثروتها ، ومنذ شرع
رجال الحديد الخائن توفيق ينتمون من الوطنيين الذين انضموا إلى
زعيم الشعب أحمد عرابي !

وكيف يستطيع مصرى أن يحايد في شأن الاستقلال ، أو وثبة
سنة ١٩٢٥ ، أو وثبة اسماعيل صدق سنة ١٩٣٠ ، على الدستور ؟ ان
معنى الحياد هنا هو الرضى بالاستبداد

والذي نراه في تاريخ الصحافة في مصر أن جميع الصحف التي

كأخت المستبدين والمستعمرين ماتت لأنها لم تقو على الحياة ازاء الضغط والظلم والتشريد وسائر المظالم التي عومل بها أصحابها وأعظم مثال للصحيفة المسكخة في بلادنا هو اللواء الذي أسسه مصطفى كامل وأشرف على تحريره . وكان اللواء صحيفة ودعاية وكفاحاً ، اندغمت حياة صاحبه فيه . وكانت حياة الكفاح لاستقلال الوطن . وكان كفاحاً مرأ انتهى بموت مصطفى كامل وهو دون الثانية والثلاثين . وكان موته أقرب الى القتل العنيف منه إلى الموت الهادئ ، لفرط ما كابد من مرارة هذا الكفاح

ظهر اللواء في ١٩٠٠ فكان منبراً يقرأ فيه كل يوم خطبة بقلم مصطفى كامل بشأن الاستقلال . ولم يكن الشعب يقرأ هذه الخطبة اليومية ، وإنما كان يتلقونها ، ويتحفظ معانيها ، ويتأمل مستقبله ازاء هذه المعاني . فكان منها بعث الوعي الوطني

كانت صحيفة اللواء تحت الشعب على المطالبة بالاستقلال : وكانت أيضاً تطالب بالاصلاح داخل البلاد . أنظر إلى ما يقول في عدد ١٦ نوفمبر من ١٩٤٠ بشأن الحكم الدستوري :

« وعندي أن هذه الأدوار المختلفة والأدواء المتنوعة دالة كلها على شدة حاجة هذه البلاد الى مجلس نيابي تكون له السلطة التشريعية الكبرى ، فلا يسن قانون بغير ارادته . ولا تحور مادة الإبهشييته ، ولا يززع نظام بغير أمره ، ولا تعلو كلمة على كلمته ، والإيفان بقاء السلطة المطلقة في يد رجل واحد

سواء كان مصرياً أو أجنبياً يضر بالبلاد كثيراً ويجبر عليها
« الوبال »

وكتبت تحت عنوان « انشاء مجلس نيابي » في عدد ٩ مارس
سنة ١٩٠٤ من اللواء ماياتي :

« لعل قراء اللواء وغيرهم من افراد الأمة المصرية يدركون
ماقلناه من فوق المنابر وكتبناه في هذه الجريدة وغيرها عن
وجوب انشاء مجلس نيابي منذ عشر سنوات كاملات ، ويسرهم
كما سرنا أن هذا المطلب العزيز صار على السنة الكثيرين من
أهل القطر ، لأنه الانشودة التي يجب أن يترنم بها المصريون
بعد طلب الاستقلال ، وسواء كان سابقا أو لاحقا لتخلص
البلاد من رق الاحتلال . فانه الضمانة الوحيدة والكفالة
الصحيحة لسلامة القوانين والحرية الخاصة والعامة »

إلى أن قال :

« ليس للاحتلال مصلحة في ايجاد مجلس نيابي لهذه البلاد
ولكن صوت الأمة يعلو على صوته اذا تمسكت به ودعت اليه
وظالبت وجاهدت بقوة الرأي والفكر والثبات التي هي أكبر
القوى الفعالة في حياة الأمم ، فلتفعل ، فانها هي تخطو
بالوصول اليه أكبر خطوة في طريق الاستقلال »

وكانت الدعوة إلى الحكم النيابي ، مع احتلال الانجليز لبلادنا ،
لا تقتصر في قيمتها عن الدعوة إلى الاستقلال . ولذلك وجدت المقاومة
من المستعمرين الانجليز ومن المستبدين المصريين بقيادة الخديو

وفي ١٩٠٤ عقد ما يسمى « الاتفاق الودي » بين بريطانيا وفرنسا :
الاولى تقنع بسرقة مصر ، والثانية تقنع بسرقة مرا كش ، ولا تدخل
احدهما في شأن ماتسرقه الأخرى من مصر أو مرا كش . فككتبت
اللواء مئات المقالات لتنبية الشعب إلى أن ينهض لمسكافة هذا الاتفاق .
وفي ١٨ ابريل كتبت اللواء هذه السكيات التالية التي تعد مثالا لغيرها .
خاطبت الشعب قائلة :

« انظر الى الشعوب التي أصابها ما أصاب شعبك . تجد
البولوني وقد مزق وطنه وعلت فيه كلمة دول ثلاث ، يجد
ويعمل مفكرا كل يوم بل كل لحظة « بولونيا » يذكر
تاريخها ويكي أيامها الحالية ، ويربى ابنه على حبها والتمسك
بحقوقها . والفنلندي وقد لبس هو وبقية أفراد أمته ثياب
الحداد يوم قررت الروسية ضم جيش فنلندا لجيشها وهو معو
بقية استقلال هذه الأمة والايرلندي وقد عارض انجلترا
في ضغطها على بلاده وسلبيها حقوقه ، واستمر يعارض ويبجهد
حتى حملها على تجريد اللوردات عن أملاكهم بثمن بخس ورد
الأراضي الارلندية الى أصحابها الأصليين . وانظر الى غيرهم
وغيرهم ، لتعلم أن الأمم ، كبيرة كانت أو صغيرة ، حاكمة أو
محكومة ، لاتسمو فيها الأخلاق والصفات ولا ينشأ بينها رجال
الفكر العالي والعمل الكبير الا بالشعور الوطني . فكل
عامل على اطفاء نوره محارب لأمته وقومه وذويه . وكل داع
اليه مجد في سبيل الحياة القومية الصحيحة والرقى الخالد ،

وتنبه مصطفى كامل إلى سوء التعليم وفساد توجيه الشباب ففكر
في انشاء جامعة مستقلة عن الحكومة . وكتب في اللواء بتاريخ ٢٦
اكتوبر من ١٩٠٤ مقالا فيه :

« مما لا يرتأب فيه انسان أن الامة المصرية أدرت في الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الامم ، وأبلغ الادلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم ، وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس وتأسيس دور للعلم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد ان لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد ، الامة في أشد الحاجة اليه ، الا وهو انشاء جامعة للامة بأموال الامة »

وجاءت حادثة دنشواي في سنة ١٩٠٦ فهدت صحيفة اللواء تناشد الشعب أن يتنبه لهذه المأساة . ولم يكتف عندئذ مصطفى كامل ، الصحفي المسكافح الأول في مصر بجريدة اللواء ، بل سافر إلى اوربا وجعل يخطب وينبه الانجليز والفرنسيين إلى فضائح الحكم البريطاني في مصر ، وينشر عليهم التفاصيل المسببة عن التوحش الذي عومل به سكان دنشواي

وكان من أثر هذه الحملات الصحفية والخطابية لمصطفى كامل أن تنبه الشعب إلى وعى وطني قوى لم يجد الانجليز اذاه إلا أن يقيلوا كرومر المعتمد البريطاني في القاهرة . فأقبل في صورة استقالة إن حياة جريدة اللواء هي حياة الشرف والتضحية لخدمة الشعب المصري . بل هي أعظم مثال للصحيفة الهادفة المسكافة

الكفاح في صحيفة الجريدة

لم يكن مفر من أن تكون صحفنا الأولى ، حين كنا نكافح الاستعمار ، شخصية . إذ لم تكن نشد في الصحيفة أخباراً أو فنونا في الطبع والتصوير ، أو دروساً سياسية عن شؤون العالم ، أو شرحاً للآداب أو العلوم ، وإنما كنا نشد شيئاً واحداً أصيلاً . هو تحرير بلادنا من المستعمر . وماعدا ذلك فقيمتها ثانوية .

وكان يمكن بالطبع أن تشمل جرائدنا الأولى كل ماتحتويه الصحف الراقية . ولكن الاستعمار لم يترك لصحف الكفاح مجالاً للرقى ، إذ كان يتعقبها بالقضايا والمعاكسات الاقتصادية والإدارية حتى تفلس . وقد انشئ « قلم المطبوعات » لهذه الغاية المفردة

كنا نقرأ اللواء لشخصية الزعيم الشاب مصطفى كامل . وكنا نقرأ المؤيد لشخصية علي يوسف . وكنا نقرأ الجريدة لشخصية أحمد لطفى السيد وكانت « الجريدة » تكافح في ثلاث جبهات فيما بين ١٩٠٦ و ١٩١٥

الجبهة الأولى هي مقاومة الاستعمار البريطانى
الجبهة الثانية هي مكافحة الخديو عباس

الجهة الثالثة ، وهنا أدت الجريدة رسالتها الأولى ، هي مقاومة
الرجعية الاجتماعية

وكان لطفى السيد رجلاً قد صيغ عقله في القالب الفلسفى ، يفكر فى
احاطة ، وينظر النظرة الاستيعابية لشئون مصر . وكثيراً ما كانت
كلماته تحريراً للنفوس من ظلام القرون الماضية . وكان مع جراته
معتدلاً فى لهجته . ولذلك وجد الاحترام أكثر مما وجد الغضب من
خصومه

والاحترام هو الكلمة اللاتقة لإحساس الجمهور نحوه . فانه لم
يجد الحب الذى وجده مصطفى كامل حين كان يخاطب قلوبنا ويشير
عواطفنا الحامية . ولكنه ، أى لطفى السيد ، وجد الاحترام لأنه
كان يخاطب عقولنا الباردة

وليس بين الصحفيين المصريين من جمعت مقالاته بالعناية التى
جمعت وطبعت بها مقالات لطفى السيد فى الجريدة . وذلك لأنها
كتبت بلهجة الاديب وتفكير الفيلسوف ورزانة السياسى وحذر
المصلح الاجتماعى

وهأنذا أنقل نماذج من تفكير لطفى السيد وتعبيره عن بعض
شئوننا السياسية والاجتماعية . فهو يقول عن عرابى :

« ولولا عرابى لم يكن الدستور . فالدستور المصرى من
عمله ومن صنع يده ومن آثار جراته . طلبه عرابى لايوصف
انه عسكرى ثائر ، ولكن بوصف أنه وكيل وكتله الامة فى
ذلك ، فان عريضة طلب الدستور كانت ممضاة من الاف من
وجهاء الامة ومشايخها . فاما كون القوة العسكرية هى التى

كانت الآلة لتنفيذ ارادة الامة فى ميدان عابدين ، فذلك ان لم يكن مشروعا قانونيا فانه مشروع بتقاليد الامم . لانه هكذا جرى فى كل بلد من البلاد ، وكان القائل للحركة الدستورية فى كل بلد يحمل على الاكتاف ويهتف باسمه فى الشوارع والنوادى والمجالس ويعتبر أكبر بطل من الابطال . فعرايى حقق امال الامة بالدستور ولم يرتكب فى ذلك جريمة . ولم يسفك دما : بل كانت الحركة فى حقيقتها سلاما لابسا كسوة حرية

« ولايجوز لنا أن نعمطحق الرجل فى انالتنا الدستور ، بل يجب علينا أن نردد له شكر ابائنا يوم صدر قانون الانتخاب وقانون مجلس النواب ، فان كانوا بنا لم يستطيعوا حفظ مراكزهم ، أو اذا كانت انككترا أغلقت المجلس وألغت قانونه يوم دخولها ، فهما لاشك أن ذلك ليس من خطأ عرايى ولا من ذنبه . ومع ذلك اذا كان عرايى فى أخريات الأمر او فى عهد الثورة لم يحترم استقبال المجلس وضغطه بقوة السيف ، فذلك عمل آخر يحسب عليه بعد ان يحسب له الدستور »

وهو يكتب عن المرأة المصرية حوالى ١٩١٠ فيقول فى شأن

الحجاب والزواج :

« تخطب السيدة المصونة ، والجوهرة المكنونة ، على الطريقة التى نعرفها جميعاً لعبة فى علبة . لا تشترط فيها الا ان تروى عنها السيدات المكنونات أيضاً ماشئن من الجمال الذى لا يعرف له معنى ، الا السمن والبياض والادب الذى لا يعرف له صورة ، الا غص الطرف ووضع اليدين بانتظام على الركبتين ، كتماثيل سقارة . ثم تنقل هذه الشابة التى عقد عقدها الى بيت زوجها كما تنقل البضاعة التى حصل اتفاق المتعاقدين عليها عقدا عاما ،

ليس فيه شرط ولا خيار عيب ، ولا خيار رؤية . وكان الأزواج في هذه الحال عموماً يحبون بالسمع ، ويختارون بالسمع ، ويعولون في سعادتهم الزوجية على السمع . قد تكون الصدقة سعيدة ، فيحصل كلا الزوجين على ما كان يحب ولكن الصدقة أبعد جداً من أن تصلح نظاماً عملياً للروابط الاجتماعية ، فانها تسعد مرة ، وتخبث مراراً

« ان هذه السيدة كانت مكنونة في الحجب في دار أبيها ، مكنونة في بيت زوجها ، وجهها عورة يجب ستره ، وصوتها عورة يجب كتمانها ، وملكات عورة يجب خنقها تحت الحجاب . واسمها عورة ، وكلها كذلك . ثم يطلب منها بعد ذلك أن تكون انساناً حراً تام الشخصية ، عليه للاجتماع أثقل الواجبات ، وهو واجب تربية البنين والبنات

» يبين لبعض الدين يأخذون بظواهر الأشياء أن السيدة المحجوبة هي موضوع الاحترام والاحلال ، أو في نظر أبيها وزوجها أكثر احتراماً ورعاية من تلك الفلاحة التي لاحجاب عليها . ولكن ذلك خطأ محض . فان الفلاحة ملحوظ فيها أنها انسان أمين على نفسه ، أى انسان تام الحلقة ، له من الحرية ما وهب الله لكل مخلوق ، أما السيدة أو الهانم فانه ملحوظ فيها أنها ليست أمينة على نفسها . لاقوام لها بغير المراقبة الشديدة . أو لاجودتها الابصفتها متعلقة بانسان آخر ، هو وليها أو زوجها»

وهو يتحدث عن اللغة العربية فيقول :

« ولقد نتج من ذلك أن علماءنا الذين لا يعرفون العربية الصحيحة ، قد تقطعت بهم أسباب التأليف بلغتنا . وعدم وسائل ترجمة العلوم المختلفة من اللغة الأجنبية التي تعلموا العلم بها

« ومن ثوابنا في العلم من كتب آراءه بالفرنساوية دون العربية ، ومن محامينا الفصحاء من اذا جادلته في مسألة قانونية استسهل ان يخرج لك كثيرا من المعاني لابسمة صـورتها الفرنسية بالفاظها الفرنسية ، كان المعنى فار في ذهنه كذلك لهذا الاعتبار دعتنا حاجة البيان الى أن نفكر في غرض مزدوج هو الكلام في جعل اللغة العربية لغة العلم الحديث في القرن الحديث . وجعلها فوق ذلك حية متداولة على الألسن . مستعملة يوميا في الخطب والمرافعات وأحاديث السمر ، بل في مساومة السلع في الأسواق

« أننا ندع الى جانب ما يتهموننا به من حب القضاء على اللغة العربية ، وما يدعون علينا من أننا نريد احلال اللغة المريضة محل اللغة الصحيحة . ندع ذلك الى جانب ، ونرجو خصوصنا أن يرجعوا النظر فيما كتبناه في جميع فصولنا الماضية في هذا الموضوع ونبين من جديد هذا الغرض المزدوج

« اللغة العربية لأتكون لغة العلم الا اذا كانت هي لغة التعليم واشتملت على موسوعات العلوم المصرية المختلفة . وقد كان الطريق العادى القريب لذلك هو الترجمة . كذلك بدأت نهضتنا المصرية ولقد قابلت أحد الذين يشتغلون بالترجمة قبل أن أكتب أول مقالة (في اللغة) وسألته عن حاله ، فاجابني تلك حال لا تسر ، وصعوبة تكاد لا تتخطى في ترجمة العلوم الى اللغة العربية

« قلت : لا بأس عليك ، ان في اللغة العربية كلمات كثيرة ، فاستخدم منها ما شئت لما شئت من المسميات التي ليس لها في القاموس أسماء . استخدم بعلاقة النسب . قال : فان لم أجد قلت له : انحت اسما من وظيفة المسمى . قال : فان لم أستطع . قلت : ما عليك الا أن تثبت الاسم الاقرب نجى في العربية كما هو

فى الألاتينية أو اليونانية مع المحافظة على موازين اللغة بقدر المستطاع »

* * *

انى أعزو كثيراً من تربيتى الصحفية إلى لطفى السيد . فقد كنت
أولى قراءة مقالاته سواء وأنا فى مصر أو فى إنجلترا . وكانت لى
بمثابة الكشف الذهبى لمعانى السياسة الوطنية فى مصر
ذلك أن المقطم كانت تؤيد سياسة الإنجليز تأييداً تاماً . وكانت
الأهرام تؤيد سياسة فرنسا وتعارض السياسة البريطانية . وكانت اللواء
والمؤيد كلتاهما تعارض الاستعمار ، ولكن مع الزعم بأن مصر جزء
من الدولة العلية ، أى العثمانية

وكنت أجد حرجاً فى هذا الموقف السياسى . ولم أكن على نضج
وفهم بحيث أفهم أن مصطفى كامل باعث الوطنية المصرية إنما كان
يستند إلى الدولة العثمانية توسلاً وحيلة فقط لمكافحة الاستعمار
البريطانى ، كما اتضح ذلك فى الشهرين الأخيرين قبل وفاته ، حين حملة
ضميره على أن يصارح الأمة . فكسب يقول ، وكرر القول ، بأن مصر
نهب لبريطانيا وتركيا معا . وعارضته المؤيد ووبخته بقولها : أنه يسكتب
كما لو كان عرابى . . .

وكان ظهور الجريدة بقيادة لطفى السيد انفصالات صريحا من هذه
الخطبة التى اتبعها اللواء والمؤيد . فانها ، فى صراحة لاتشوبها شبهة ،
قالت : ان مصر للمصريين وليست لتركيا أو لبريطانيا

ومع أن هذا المنطق واضح مقبول في أيامنا فإنه لم يكن كذلك فيما بين ١٩٠٦ و ١٩١٦ . ولذلك وجد لطفي السيد معارضة غير صغيرة ، ليس من الصحف فقط ، بل من الشعب أيضاً . ولكنه وجد تأييداً تاماً من الطبقة المثقفة ، كما وجد مثل هذا التأييد من الأقباط الذين لم يكونوا يفهمون معنى لاستقلال ندعو اليه تكون فيه السلطة المشرفة على البلاد سلطة الاتراك

وهنا فضل لا ينسى إلى جنب أفضال كثيرة للطفي السيد على الصحافة المصرية . إذ ليس شك أنه المجدد الأول في الوطنية كما هو المجدد الأول في الصحافة المصرية

كفاحى فى الصحافة

سأكتب هذا الفصل لاعلى أنى رجل خطير فى الصحافة المصرية، بل للتمثيل على عدد كبير من الصحفيين الذين هدفوا من الصحافة إلى الكفاح . فخدموا الشعب ، وعودوه الفكرة والأسلوب والهدف فى مكافحة الاستعمار الاجنبى والاستبداد الداخلى . وإذا كنت أكتب عن نفسى بدلا من أن أكتب عنهم فلأنى أعرف نفسى أكثر . وليس لأنى خدمت أكثر

فى ١٩١٤ أنشأت أولى المجلات الأسبوعية فى مصر ، وهى مجلة «المستقبل» . وكنت فى بداية العقد الثالث من عمرى قد أسكرتني الحضارة الأوربية كما شاهدتها وأختبرتها فى عواصم أوروبا . فدعوت ، فى وجه المعارضة الاجتماعية قبل المعارضة الحكومية ، إلى الأخذ بالآراء العصرية والحريات العصرية . وعطلت مجلة المستقبل فى بداية الحرب الكبرى الأولى

ثم عملت محرراً فى مجلات دار الهلال وجريدة البلاغ . وكانت دعوتى ، كما هى الآن ، الأخذ بالعلوم العصرية ، والصناعات العصرية،

كما يتضح ذلك من الكتب التي ألفتها فيما بين ١٩٢٤ و ١٩٣٠ مثل: «مختارات سلامة موسى»، و «نظرية التطور وأصل الإنسان»، و «اليوم والغد»، و «العقل الباطن» الخ. وجميعها تصطبغ بالصبغة العلمية وتهدف إلى التغيير الفكري. كما أن معظمها كان قد نشر مقالات مستقلة في الجرائد والمجلات التي عملت فيها

وفي أواخر ١٩٣٠ أخرجت مجلتين، أحدهما شهرية وهي «المجلة الجديدة»، والأخرى أسبوعية وهي «المصري». ولم تكد تظهر الأعداد الأولى حتى كانت الانقلابات التي دبرها اسماعيل صدق بشأن إلغاء الدستور باملاء فؤاد الملك وقتئذ. وكان هذا الأخير، لجهله وفساد ذهنه، يعتقد أن من حقه أن يحكم مصر حكما منفردا لأشأن الأمة فيه وكان وراء هذه الحركة الاستعمار. الذي أراد معاقبة الوفد، الهيئة الوطنية المتماسكة الوحيدة وقتئذ، لأنه رفض عقد معاهدة ترسخ أقدام الانجليز في بلادنا، وعندئذ وجدتني في غمرة كفاح عنيد ضد ثلاثة أعداء هم:

المستبدون: فؤاد واسماعيل صدق ومن انضم إليهما
المستعمرون: الانجليز

الرجعيون: الذين لا يأخذون بالآراء العصرية ولا يدركون قيمه الصناعات العصرية التي هي علة التفوق الأوروبي على الشرقيين، ولا علة غيرها

فأما المستبدون فقد كفحتهم على صفحات المصري كفاحا مريرا. ثم بعد تعطيل المصري ثابرت على الكفاح في نحو اثنتي عشرة مجلة أسبوعية

كنا نستأجرها من أصحابها ونصدرها في صورة مجلة « المصرى »
ورسمه ، إلى أن أصدر اسماعيل صدق قانونا جديدا للصحافة وقفنا عن
هذا النشاط . وذلك في ١٩٣١

وأذكر أنى كتبت في مجلة « المصرى » بتاريخ ٤ ديسمبر مقالا
افتاحيا بعنوان « تربية الملوك » يفهم منه القارئ أنه موجه إلى « فؤاد »
الملك وقتئذ ، وصفت فيه الخديو اسماعيل ثم الخديو توفيق بأنهما
كانت تنقصهما التربية . وبرهان ذلك أن الأول عبد إلى خمسة أو ستة
من المجرمين ، الذين لم تستطع محكمة اثبات ما اتهموا به ، فدرس لهم
السم في السجن . فأتوا

وذكرت توفيق بأنه كان يقف على سطح قصره بالإسكندرية
ليرى ضرب الانجليز للإسكندرية . فكان يفرح ويهال كلما أصابت
إحدى قنابل اسطولهم منازل المدينة . وإليك بعض الكلمات التى
وردت بالمقال :

« ... وقد رأينا في تاريخنا الماضى كيف أن توفيق باشا
أثر دخول الانجليز مصر وخيانة الوطن على أن يقصر نفسه
أو يدللها للروح الدستورية ويخضع لمجلس النواب الذى
اختارته الأمة . ولو أن هذا الرجل كانت قد أحسنت تربيته
منذ الصغر ، وأنشأه أبوه على الاقلاع عن طبيعة الاستبداد ،
والتطبع بالروح الدستورية ، لما جئنا كل هذا الذى جئنا من
المصائب

« ... وقد ذكرت الصحف كيف أن اسماعيل باشا الخديو
كان يأمر أحد المديرين بتسميم المتهمين بالاستبركنين كما تسمم
الكلاب الضالة الآن . وهذا العمل هو على فقاغته ليس

الانتيجة هذه الطبيعة الاستبدادية التي نشأ عليها اسماعيل ، حتى أنه لم يكن يستطيع أن يروض نفسه على الصبر ومحاكمة المتهمين أمام المحاكم ، لأن استبداده كان يدفعه الى التعجيل بالقضاء عليهم . وكل أمة في العالم كائنة ما كانت ، تسمح للملك المتولى الحكم عليها أن يستبد بها ، جديرة بأن تجد منه مثلاً وجدناً من توفيق أو اسماعيل : الأول ينضم الى العدو على البلاد ، والثاني يستخدم رجال يسمون الناس بالاستركنين »

ونشرت خمس صور لحسة ملوك مخلوعين ، وقلت أن السبب لحلهم أنهم لم ينزلوا على ارادة الشعوب . وكان الهدف المقصود واضحاً ، ولو بالبناء للمجهول

ولم يكن عدد واحد من مجلة « المصرى » يخلو من الهجرم على اسماعيل صدق الذى ألغى دستور ١٩٢٣ وألف دستوراً ينكر سيادة الشعب ويفتح الأبواب للغش والخديعة فى الانتخابات للبرلمان هذا هو كفاحى السياسى الذى أستطيع أن أقول أنى خدمت به الشعب فنهته الى حقوقه وإلى ضرورة المقاومة لطغيان المستبدين ثم كان لى أيضاً فى ١٩٣٠ كفاح آخر للمستعمرين . وقد جعلته إيجابياً بنائياً ، وذلك بإنشاء « جمعية المصرى للمصرى »

ذلك أن فهمى للاستعمار كان وما يزال ينطوى على أنه نظام يقوم لاستغلال المستعمرات . وذلك بتشجيع أبنائها على الإنتاج الخام فى استخراج المواد الخام زراعية أم معدنية . ثم حرمانها الصناعة . وعندئذ تشتري الألة المتسلطة منتجات المستعمرة الخام بأتفه الأثمان . ثم تعود فتبيعها لها ، بعد استنصاعها ، بأعلى الأثمان . وألفت جمعية

د المصرى للبصرى، كى نضرب الاستعمار البريطانى فى أساسه هذا . وكان قانون الجمعية يشترط على أعضائها ألا يشتروا سلعة أجنبية مادام هناك ما يقابلها من السلع المصرية ، وأن يقاطعوا المصنوعات الانجليزية ، وأن يتجروا مع التجار المصريين دون التجار الأجانب

ودعوت لى ايجاد متجر مصرى فى شارع ٢٦ يوليه (فؤاد كما كان يسمى وقتئذ) ولم يكن به متجر مصرى واحد . واحد فقط

هل تصدق هذا أيها القارىء ؟ هل تصدق أنه لم يكن فى هذا الشارع متجر مصرى واحد فى ١٩٣٠ ؟

واستطاعت جمعية د المصرى للبصرى ، أن تحمل بنك مصر على أنشاء د محل بيع المصنوعات المصرية ، فى هذا الشارع . وكان عرضنا الأول على المرحوم طلعت حرب مبلغا مقداره ألف جنيه قدمه وكيل الجمعية (وكنت أنا الرئيس) شيكا باسم هذا المتجر . وكان هذا الشيك بداية المشروع

وسارت حركة د المصرى للبصرى ، فيما يشبه الانتهاب . وانتشر الوعى الاقتصادى بين الشعب ، فصار د التاجر المصرى ، هو المقصود الأول . وكان من أعضائها الوزير فتحى رضوان والوزير نور الدين طراف وأحمد حسين

وكان هذا كفاحى للاستعمار

ثم كان لى كفاح ثالث هو هذه الرجعية ، التى تستسلم للغيبات ، ولا تسلم بحرية المرأة ، ولا تقبل على الآراء العصرية ، ولا تحتضن العلم . وكان من أثر هذا الكفاح أن شيخ الأزهر وقتئذ (١٩٣٠)

كتب إلى وزارة المعارف يحذرها من خطرى ، وأنها يجب ألا تشترك في « المجلة الجديدة » ، التي كنت انشرها . وأطاعته الوزارة في جنب وجهل

هذه هي أنواع الكفاح الثلاثة كما مارسها في ١٩٣٠ ، وقد أدت إلى تعطيل مجلاتي جميعها : ما كنت أملكه وما كنت استأجره . فهل فشلت ؟ أن النظرة السطحية توهم الفشل . ولكن النظرة العميقة توضح النجاح كما يجب أن يكون

ذلك أنه كان في مستطاعى أن أجعل مجلاتي « متفرجة » ، محايدة ، تنشر الخبر والصورة والمقالة والقصة ، وتقرأ للتسلية والترويح على المقهى أو فى القطار . يتصفحها القارئ فلا يجد ما يبعث فيه حزناً أو غضباً أو حافزاً على عمل أو جهد أو باعث على اتجاه وتسديد إلى هدف . وعندئذ كان يكون النجاح العرفى ، نجاح المال والاقتناء . ولكن الصحافة رسالة . وهى كفاح . وقد كاتحت من أجل الدستور . وكاتحت الانجليز بالعمل الايجابي الصالح الباقى ، وهو الدعوة إلى التجارة والصناعة المصريتين وكافحت الرجعيين الذين يكرهون العلم ، ويحتقرون المرأة ، ويسبون الشباب

واعتقادی أنى نجحت فى كل ذلك . وان كانت مجلاتى قد ماتت كان نجاحى صحفياً ، ولكنى فشلت مالياً . بل لانى بعث بعض متللكاتى كى أتجاوز الأزمة المالية التى أحدثها لى اسماعيل صدق فى ١٩٣٠ ولكنى عندما أسير الآن ، فى ١٩٥٦ ، فى شارع ٢٦ يوليه (فؤاد سابقاً) وأرى على صفيه متاجر مصرية كبيرة وصغيرة أحس

بالفرح بل الطرب يغمرني ، حين أذكر أنني كنت أسير في هذا الشارع في ١٩٣٠ وقبلها فلا أجد متجراً مصرياً واحداً . لأن التجارة المصرية وقتئذ كانت محدودة محصورة ، بل محبوسة ، في خان الخليلي ، لا تزيد على بعض التحف من النحاس الأصفر وفسيفساء العظم أو الصدف . وكان الانجليز قد نجحوا في إيهامنا بأن « بلادنا زراعية » حتى أن مقاعد التلاميذ في المدارس كانت تستورد من إنجلترا . وكان المصنع المصري لا يجد تعريفاً في قوانيننا غير أنه « محل مقلق للراحة أو مضر بالصحة أو خطر »

* * *

وفي بداية هذا العام قدم الى القاهرة أديب انجليزي من الطراز الاستعماري القديم هو سومرست موم . وقد حزن عندما رأى متاجرنا في شارع ٢٦ يوليه وأسف على أننا تركنا خان الخليلي وبعض الفضل في أسفه الاستعماري ، ان لم أقل كل الفضل ، لجمعية المصري للمصري التي أرصدت صحن في ١٩٣٠ لخدمتها والدعوة لها

صحافة المقالة وصحافة الخبر

كانت بلادنا في أيام اسماعيل مركزاً عالمياً لهجوم رأس المال الاوربي. ومن هنا مشروعات اسماعيل الكثيرة التي انتقمنا ببعضها كما وقفنا في الافلاس بعد ذلك بسبب بعضها الآخر. وفي أثر هذه المشروعات، وفي تزامم الدول والشركات، وفي التنبيه العام الذي أتتجه تصادم الطبقة الحاكمة بالاجانب، ظهرت بعض الصحف

ثم في أيام توفيق زاد التنبيه العام للتصادم بين المصريين المستحكمين وبين بقايا الاتراك والشراس الحاكين. فظهرت صحف أيضاً تشايح الشعب. ثم جاء الاحتلال. فأوعز الانجليز لبعض الكتاب بايجاد صحف اخرى تشايح الاحتلال ضد الدولة العثمانية

ولذلك نرى روسيا القيصرية تؤسس جريدة يومية بالاسكندرية تجعل من دأبها الطعن في الدولة العثمانية والدعاية لروسيا القيصرية. وكانت تنوى القضاء على الدولة العثمانية بالاستيلاء عليها واختراقها الى البحر المتوسط

ثم نرى بعد ذلك، أيام الاحتلال البريطاني، جريدة يومية اخرى

يُشسها الانجليز ، ويغذونها بأموالهم ، للطن في الدولة العثمانية ايضاً
والا كبار من نزاهة وعدل الدولة البريطانية
وبقى الميدان الصحفي في مصر ، باستثناء فترة قصيرة ظهرت فيها
صحف الدعاية للثورة العراقية ، وقفا على هاتين الجريدتين
ثم رويداً رويداً ظهرت الصحف الوطنية التي تدعو الى الاحساس
المصري والوعى القومى بالدعوة الى الاستقلال . فهنا كانت المؤيد ثم
اللواء ثم الجريدة

ولما كانت الدعاية هى الهدف ، قآن هذه الصحف جميعها ، مع
الصحيفتين السابقتين ، قبل الاحتلال وبعده ، كانت صحف المقالة . لان
الدعاية ليست أخباراً بقدر ما تكون مقالات

المقالة الانشائية فى مدح روسيا ، ثم فرنسا ، ثم بريطانيا ، ثم بعد
ذلك على أيدي الوطنيين المصريين: على يوسف ، ومصطفى كامل، ولطفى
السيد . المقالة الانشائية فى مكافئة الانجليز ، والدعوة بقلم لطفى السيد
الى الاصلاح الاجتماعى ومكافئة الرجعية

وأصبحت « المقالة » أساس الفن الصحفي . أما الخبر فقد تقهقر الى
حد الاهمال التام أحياناً . وبقينا على هذه الحال الى حوالى سنة ١٩٣٠
حين اتخذ الفن الصحفي ميداناً آخر للمباراة والتفوق بالخبر والصورة .
وكان للتقدم المطبعى فضل كبير فى ذلك ، لان للصورة باناقة طبعها
قوة جذبية كبيرة . وهى فى صميمها خبر

كان موقفنا الوطنى ، فيما بين الثورة العراقية الى حوالى سنة ١٩٣٠ ،
موقف الكفاح السياسى للاستعمار البريطانى . وأيضاً للاستبداد الوطنى ،

الذى كان يمثله امراء وملوك من أسرة محمد على . والواقع أن كل كاتب مصرى على شىء من الذكاء كان على وعى تام بأننا منذ الحركة العراقية الى ١٩٥٢ كنا نكافح عباس أو حسين أو فؤاد أو فاروق كما كان أسلافنا يكافحون توفيق والطغمة المحيطة به من أتراك وشركس وكلية الكفاح تعنى فى النهاية تنسيباً وتحميساً وتحريضاً . وكل هذه المعانى كانت تستوعبها المقالة، وظهرت مقالات مصطفى كامل الإلتهابية فى التحميس لتنبيه الشعب الى ضرورة السعى والجهاد للاستقلال، ومقالات على يوسف المنطقية ضد الانجليز ، واخيراً مقالات لطفى السيد فى مكافحة الرجعية والدعوة الى الاصلاح الاجتماعى . وعلى هذه الاقلام نشأ عبد القادر حمزة ، فنقل المقالة الى المناقشة الحزبية

وأصبحت المقالة من تقاليد الصحف المصرية . لا ينشد صحفي التفوق بدونها ، ولا يفكر أحد فى البراعة الصحفية عن طريق الخبر الداخلى أو درس السياسة الخارجية . وما زلنا ، نحن المسنين ، نذكر كيف كانت الاخبار الخارجية أخبار العالم والانسانية ، تهمل إهمالاً كبيراً فى صحفنا القديمة ، اللواء والمؤيد والجريدة ، حتى كانت تلغرافات رويتر توجز فى نحو عشرين سطراً فى عمود ناء خفى من أعمدة الصحيفة

وظهرت فيما بين الاحتلال الانجليزى و ١٩٣٠ مدرسة الصحافة المقالة . يكتبها كتاب برعوا فى الاسلوب والجدل المنطقى واستوعبوا مقداراً كبيراً من الثقافة العامة التى يجعلها كثير من الصحفيين المحدثين فى وقتنا . ولذلك كان معظم هؤلاء الكتاب مؤلفين أو كانت مقالاتهم الصحفية من القيمة والخطورة بحيث صارت تجميع وتضم بين دفتى كتاب .

وما زال بعضها يقرأ الى الآن كما نرى مثلاً في مقالات لطفي السيد في
الجريدة أو غيره من الكتاب القدامى

وفضل هؤلاء الصحفيين المقاتلين أنهم استطاعوا أن يتدعوا أسلوباً
كتابياً سهلاً يستطيع أفراد الشعب الذين لم يحصلوا على مقدار كبير من
الثقافة أن يفهموه ويسبقوه . وصار لهذا الأسلوب قيمته في إيجاد القراء
للمصحف . كما أن لغتنا لا نت ومرت بعد ذلك للتأليف الشعبي

ويمكن أن نصف صحف المقالة بأنها كانت صحفاً « شخصية »
ذلك لأنها ، حين أهملت الخبر وعينت بالمقال ، أصبح صاحب المقال
« بطلاً » عند القراء . يشترى الصحيفة من أجله لقراءته وحده ثم
يطرحونها بعد ذلك . ثم هو كان ، لتوالي مقالاته ، عرضة لاضطهاد
المستعمرين والمستبدين . ولذلك كثيراً ما كان يحبس فيعود شبيهاً أمام
الجمهور . ولم تكن نشرة اللواء أو المؤيد مثلاً فيما بين ١٩٠٠ و ١٩١٠
الا لنقرأ مقالات مصطفى كامل أو علي يوسف

ويجب أن أتبه هنا أيضاً الى أن صحف المقالات سبقت صحف
الاخبار لأنها كانت تعاني ضعفاً أصيلاً في إمكاناتها ومقتنياتها . فلم يكن جمهور القراء
كبيراً ، وخاصة عندما نذكر أن التعليم كان محدوداً . وكانت اللغة
الانجليزية تعلم بدلاً من العربية منذ السنة الأولى الابتدائية . ولذلك
لم يكن دخل الجريدة يمكنها من استخدام عشرات المخبزين الذين
تستخدمهم الصحف في وقتنا . كما أن التقدم المطبعي لم يكن قد تحقق .
ولهذا التقدم قيمته الكبرى في جعل الصحيفة خبرية بدلاً من أن تكون
مقالية ، وفي وصولها الى أكبر عدد ممكن من القراء للقوة الإغرائية فيها

ومع أنى لا أنكر أن للخبر قيمته في تربية القارىء ، وأن الصحيفة
العصرية تستطيع بالخبر الدال أن تربي قراءها ، فانى مع ذلك آسف
على أن صحيفة المقال قد اختفت واختفى معها الكتاب الكبار الذين كانت
تجمع مقالاتهم الصحفية كتباً تقرأ وتحفظ. وأمامى ، هذه اللحظة ، أربعة
مجلدات للطنى السيد هى بعض مقالاته الصحفية فى الجريدة. ولى أنا ستة
مجلدات عن موضوعات ثقافية مختلفة نشرت جميعها بالصحف اليومية ، حين
كانت صحف مقالات ، ثم جمعت كتباً تقرأ وتحفظ لقيمتها الثقافية .
وكذلك الشأن مع غيرى من الكتاب القدامى

كنا نكتب للتفسير والتثقيف والتعليم . وكانت بضاعتنا راحة .
ولا أنكر أن الصحف العصرية « الخبرية » لا تزال تقدرنا . ولكنى
أحس أنها تفعل ذلك تفضلاً وليس ضرورة . لأنها تستطيع أن تستغنى
عنا اذا كان الهدف هو الانتشار وعدد ما يطبع من الصحيفة فقط
ثم أن هناك ذلك الشطط الذى يحيل صحيفة الخبر أحياناً الى اختيار
الخبر المقرئ لغرائبه ، وإن لم يكن له أى مغزى أو دلالة . وذلك جرباً
وراء المثل الصحفى المعروف ، وهو أن خبر الرجل الذى يعرض الكلب
خير من خبر الكلب الذى يعرض الرجل . وقد شاع هذا الطراز من
الاخبار فى أيامنا ، وكان خبر الجمل الذى فر من المحزر الى قصر عابدين
كى يستغيث بفاروق حتى لا يذبح ، بعض هذه الاخبار

* * *

واتقلت الصحافة فى مصر من صحافة المقالة الى صحافة الخبر .
وكان هذا تطوراً أو انتقالاً طبيعياً
وذلك أنما منذ الثورة العراقية كنا فى كفاح لا ينقطع لأعداء هذه الثورة .

وكان احتلال الانجليز للقاهرة قد صعق الشعب وجهد احساسه ، كأنه قد ارتضى الهزيمة ياسا . ومن هنا التفسير لرواج الاشاعات التي أشاعها أعداء الشعب بأن عرابي كان خائنا . وصحيح أن جمهور الشعب لم يصدق هذه الاشاعات ، ولكن الحاح الطبقة الحاكمة ، من الاتراك والشركس ، على ترويجها جعلها مستساغة عند بعض الوطنيين الذين تساملوا ، عقب الهزيمة ، عن مقدار الحكمة في رجال الثورة . ومن هنا اجتراء الشاعر شوقي على ذم عرابي ومدح الخديو توفيق ، وإن يكن هذا الشاعر نفسه قد عاد ، في الطبعة الثانية لديوانه ، فحذف أبيات السباب التي سب بها عرابي . وذلك بضغظ الرأي العام

وفي هذه الحال تعين على الصحفيين المصريين ، عبد الله نديم ومصطفى كامل وعلى يوسف ، أن يعيدوا الثقة الى الشعب ، وأن يحملوه على استئناف الكفاح ليس ضد الخديو فقط بل ضد الانجليز أيضا . وسبيل ذلك المقالة وازدادت قيمة المقالة في ثورة ١٩١٩ . فان جميع جرائدنا وقتئذ كانت جرائد الدعوة الوطنية لا أكثر . ولم تكن نشترى الصحيفة كي نقرأ خبراً بقدر ما نشترىها كي نقرأ مقالا لاحد الكتاب ، الا إذا كان هذا الخبر خاصا بالثورة

كان الصحفي الفذ في ١٩١٩ وما قبلها هو كاتب المقالة ، في حين أن الصحفي الفذ في ١٩٥٨ هو راوى الخبر . وكانت الصحيفة المصرية الى ١٩١٩ تفتتح صفحتها الاولى بمقال وطني في حين هي في ١٩٥٨ ترصد هذه الصفحة للاخبار الداخلية والخارجية

ثم هناك سبب آخر لإيثار المقالة على الخبر في صحفنا القديمة . فقد ذلك أن قدرتها المالية وممكناتها الفنية المطبعية كانت صغيرة ، فقد

كان القراء قليلين لقلة المدارس ، وكانت الامية فاشية تعم نحو ٩٠ في المائة من أفراد الشعب أو أكثر ، لأن الاستعمار كان يحرص على ألا يفشى التعليم بيننا حتى لا يؤدي الى وعى وطنى ينقلب الى عداء شعبى عام للمستعمرين . وحسب القارئ أن يعرف أن وزارة المعارف ، لم تفتش مدرسة ثانوية للبنات الا سنة ١٩٢٥

ولما كانت صحيفة الخبر تتكلف من النفقات نحو خمسين بل مائة ضعف ما تتكلفه صحيفة المقالة ، فان الصحف القديمة ، قبل انتشار التعليم ، كانت صحفا فقيرة لا تجد العدد الكبير من القراء الذين يمكنونها من الاتفاق بسخاء على جمع الاخبار . فكانت لذلك صحف المقالات هى الصحف العامة

ولكن ثورة ١٩١٩ أوجدت وعيا صحفيا جديدا لاهتمام الشعب بحركة الاستقلال وما تغلغلها من حوادث القمع والحبس والنفي والاعدام التي قام بها الانجليز . وكانت هذه الحوادث أخبارا ، تواليها الصحف بالعناية وتنشر تفاصيلها يوما بعد يوم . وتخل هذه الحوادث دسائس قام بها القصر لتحطيم الحياة النيابية البازغة بمؤازرة الكتاب المارقين . ومع أن هؤلاء الكتاب كانوا متخصصين في المقالات فإن للتفرز العام ويقظة الشعب احتاج كلاهما الى صحف جديدة للاخبار تغزو تلهف القراء على الجديد في الحركة الوطنية

وظهر حوالى ١٩٢٥ نوع جديد من المقالات وذلك أننا كنا نقرأ المقالة قبل ذلك فنجد تحمسا وتنبيها يشبه الى حد كبير مقالات مصطفى كامل . وكانت البهجة الخطابية تغلب عليها ، اذ

كان الكاتب يخاطب عواطفنا كي يلهب احساسنا لمكالفة الاستعمار وتحقيق الدستور . ولكننا شرعنا حوالى هذا التاريخ نقرأ المقالة الخبرية أو الخبر المقالى

وكان بطل هذا الابتداء محمد التابعى ، الذى أستطيع أن أصفه بأنه أبو الصحافة المصرية الحديثة بكل ما فيها من ميزات وعيوب . ذلك أنه شرع فى مجلة « روز اليوسف » ، ثم بعد ذلك مجلة « آخر ساعة » ، يجذب أكبر عدد من القراء بنشر التفاصيل المغرية عن المسرح والطبقة العليا من الشعب ، أو ما يسمى المجتمع الراقى . ثم انتقل من هذه الموضوعات الى الاخبار السياسية التى لم يكن ينشرها أخباراً وانما مقالات مفصلة . وبهذه الطريقة ربط بين الشعب وبين السياسة وأوجد

المقال الخبرى بدلا من المقال الخطابى

وعاونه على ذلك التقدم الفنى فى الطبع

ذلك أن المقال الخطابى العاطفى الذى كنا نجده فى توفيق دياب ، أو المقال السياسى النقاشى الذى كنا نجده فى عبد القادر حمزة ، لم يكن أحدهما يحتاج الى الصورة أو اللون . ولكن الخبر الذى يحتاج الى الصورة الكاريكاتورية ، ثم صورة الممثلة التى تتلأل فى جمالها المطبوع أو المصنوع ، واتقان الطبع والاخراج بالآلات المطبعة الحديثة ، كل هذا قد رفع من شأن الصحف الخبرية وجعل لها المقام المفضل على الصحف المقالةية وهنا ظهرت طائفة الصحفيين المخبرين

وليس معنى قولى هذا أن صحف المقالات . مثل اللواء والجريدة والبلاغ ، لم تكن تبالى بالاخبار وتعنى بها ، فقد كان لها مخبرون ولكن

مرا كزهم الصحفية كانت ثانوية الى جنب مكانة المحرر كاتب المقال
 الافتتاحي أو المقال الاوسط أو المقال الادبي . وكان معظم نشاطهم
 يتجه نحو موظفي الحكومة ، وتنقلاتهم وترقياتهم ، وما يستطيعون
 الحصول عليه من دوائر البوليس والنيابات ، يكتبون ذلك كله في إيجاز
 وجفاف ليس فيها أى اغراء فى صحفى . ولكن بعد حوالى ١٩٢٥
 برزت الاخبار وتفوقت على المقالات . بل أخذت صيغة المقالات .
 وصارت الجريدة توفد أحد مخبريها لحدث يقع فى السويس أو أسوان ،
 بل فى بغداد أو طهران ، فيوافيها بتفاصيل أحد الحوادث يوما بعد يوم ،
 ويرسل اليها الصور ، التى لم تكن تعرفها صحفنا القديمة ، والتى تشوق
 القارىء مثلما تشوقه سائر التفاصيل . وهذا المخبر لم يعد يكتب الخبر
 فى الإيجاز الذى كان يكتبه سلفه ، إذ هو يحيله الى مقالة أو مقالات
 وظهرت المجلات الفنية التى تحيا على الاخبار فقط . ولكن كل خبر
 داخلى أو خارجى يستغرق الصفحة الواحدة أو الصفحتين أو أكثر مع
 الصور . ولذلك لا نكاد نجد مقالا واحداً فى « آخر ساعة » مثلاً من
 تلك المقالات التى كنا نجدها فى الصحف قبل ١٩٢٥ ، وإنما نجد أخباراً
 مقالية أو مقالات خبرية

وقد يسأل القارىء هنا هل هذا خير أم شر؟ هل هو كسب أم خسارة؟
 والجواب أنه كلا الاثنين . ومع ذلك أنا أؤثر صحفنا الحديثة
 التى تعنى بالاجبار على صحفنا القديمة التى كانت تعنى بالمقالات . فان للاخبار
 قيمتها الكبرى فى زيادة الوعي الانسانى . فضلاً عن الوعي الوطنى
 وقد يقال أن الصحف العصرية تعنى كثيراً وتسرف فى نشر الاخبار

الخاصة بالجرائم والجنس . وهذا صحيح . ولكن يتقابه انعدام هذه الاخبار من الصحف القديمة ، وما دامت الاخبار صحيحة فنحن نحتاج الى الوقوف عليها ، ولكن بلا اسراف في التفاصيل التي لا تزيدنا نوراً وفيها

ثم أن عناية الصحف العصرية بالاخبار قد حملتها على العناية بأخبار العالم . وهي أخبار لم نكن نعرفها في جرائدنا القديمة . ولذلك صارت تخصص صفحاتها الاولى بهذه الاخبار وصرنا نجد كل صباح صورة حية لأحوال العالم الذي نعيش فيه والذي يجب ألا نجعله . والصحيفة هي ، بعد كل شيء ، للعالم وليست للوطن وحده

ثم هناك ميزة أخرى لـصحف الاخبار الحديثة هي أنها لاعتمادها على الخبرين المتصلين بالشعب في أحواله الارتزاقية والثقافية والسياسية والاجتماعية ، قد أوجدت أسلوباً شعبياً في الكتابة لم يكن يعرفه كتاب المقالات القديمة الذين كانوا يستلهمون الكتب أكثر مما كانوا يستلهمون الشعب . وهذا كسب كبير

المرأة في الصحافة

عندما تتأمل الحال التي كان يعيش فيها نساؤنا قبل أربعين سنة ، حين كان الحجاب عاما والفصل بين الجنسين تاما ، ونقارنها بحالنا الحاضرة ونحن نجد المرأة السافرة بل العاملة ، نحس أن أجمل ما في نهضتنا وأبعثها على السرور والغبطة هو هذا التطور الذي يشبه الوثبة لقد ارتقينا في التعليم وأصبح عندنا من طلبة الجامعات ما يساوى ، بالمقارنة الى السكان ، عدد الطلبة في أوروبا

وارتقينا في الصناعة فاصبح عندنا بعض المصانع . وكان الاستعمار يحظر علينا انشاء المصانع كما نحظر نحن بيع الخشيش أو سائر المخدرات وارتقينا في شؤون وطنية مختلفة . ولكن أجمل الأنواع في هذا الارتقاء هو انتقال المرأة المصرية من الأسلوب الشرقي في العيش إلى الأسلوب الغربي . وهذا الارتقاء قد استتبع تغيرات عديدة في العلاقات الاجتماعية ، فاصبحت كلمة « الحب » من الكلمات المحترمة التي لا ينجمل منها الشاب أو الفتاة

واقترحت المرأة الميادين المختلفة في النشاط المصرى . ومن أجمل

اقتحاماتها هذه أنها طرقت أبواب الصحف التي فتحت لها مع الترحيب والتقدير .
وانى أعود بالذاكرة الآن إلى أول امرأة مصرية كتبت في
الصحف . فاذكر « باحة البادية » التي كانت تكتب حوالى ١٩١٠ في
الجريدة حين كان يرأس تحريرها الاستاذ أحمد لطفى السيد . وكانت
تكتب بأسلوب عربى متين . ولم يكن هذا عجيبا ، إذ اهى ابنة اللغوى
المشهور حنفى ناصف . ولكنها كانت تكتب وكأنها تنظر إلى قلمها من
وراء البرقع ، تطالب بالمحافظة على التقاليد . ولم يكن هذا عجيبا أيضاً فانها
كانت زوجة لأحد الوجهاء من العرب فى الفيوم . ولكن إقدامها على
الظهور بقلمها فى صحيفة يومية كان بدعة تبعث على اليقظة والنهوض على
الرغم من دعوتها إلى المحافظة على التقاليد

ولكن جاءت فى عقبها الآنسة مى . وهى فتاة فلسطينية أوسورية
(قبل التجزئة الوطنية التى ابتدعها الاستعمار الانجليزى) قد نشأت فى
بيئة مسيحية وتعلت فى مدارس غربية . ولذلك عندما أقدمت على
الكتابة فى الصحف لم تجد العائق السيكلوجى الذى كانت تجده باحة
البادية . وكانت مع ذلك على معرفة باللغتين الفرنسية والانجليزية
وتعمق لآدابهما ، فكانت مقالاتها فى الادب والاجتماع والحياة عامة
ظاهرة جديدة فى الصحافة . بل كانت حياتها الحرة بصالونها الادبى فى
القاهرة ظاهرة اجتماعية كبيرة القيمة . وكانت تدعو إلى الحياة العصرية
مع اعترافات هنا وهناك تجرى على سن قلمها فى مديح الشرق . ولم يكن
هذا المديح سوى الضريبة التى كانت تؤديها للرجعيين والمحافظين حتى
حتى لا يصابوها العداء ويكرهوها على ترك الصحافة

وقد جرأت مى الكثيرات من الكاتبات المصريات والبنانيات على الكتابة فى الصحف . وذلك أنها أجادت ، وتناولت الموضوعات المختلفة ، ولقيت احتراماً، فبيأت الميدان لغيرها من بنات جنسها اللاتى أقبالن على الكتابة فى الصحف وهن لا يخشين لوما أو عيباً

ثم خف عنا ، عقب نهضة ١٩١٩ ، كابوس الاستعمار ، ولمن لم يزل . فعدنا نفشىء المدارس الابتدائية والثانوية للبنسات بعد أن كان الانجليز قد أقفلوها عقب الاحتلال فى ١٨٨٢ . بل أنشأنا الجامعة و « زحلقتنا » الفتاة المصرية اليها خلسة من وراء ظهور المحافظين والرجعيين وماهى الا سنوات حتى كان عندنا الف من الفتيات فى المدارس الثانوية ثم مئات منهن فى الجامعة . وما زالت هذه المئات فى التكاثر حتى أصبح عندنا منهن فى ١٩٥٦ نحو ستة آلاف طالبة فى ثلاث جامعات وقد ضنت الحكومات على خريجات الجامعة بوظائفها الامع الشح ، ولكن الاعمال الحرة رحبت بهن . وكانت الصحف فى مقدمة المرحيات بهن

ووجدت الفتيات المتعلبات اغراء كبيراً فى الصحف . وخاصة عندما ظهرت المجلات المصورة التى عنيت بتصوير الاخبار والنايغات السينمائية ، بل حين أسرفت فى هذا التصوير حتى فتنت به عقول الشبان والفتيات معاً . فكان الاقبال على القراءة أولاً ثم الاقبال على الكتابة ثانياً . وأصبحت كل فتاة تحس شيئاً من الاستعداد الصحفى تؤلف القصة أو المقال وتجرب قلمها فى النقد أو الوصف

وأحب أن أشير هنا الى أن اختلاط المرأة بالرجل كثيراً ما يرفع
من أخلاق الجنس النخس من حيث الارتفاع بالحديث الى الكلمات
المهذبة . ذلك أننا نحن الرجال ، حين تغيب عنا المرأة ، نترخص في
استعمال الكلمات الغليظة ولا نبالي النكته النابية .
ولكننا نحذر ذلك عندما نجد معنا امرأة

الفن الكاريكاتورى

مما يذكر عن جريدة «نيويورك تيمس» الأمريكية أن مديرها وجد في انتشارها ركوداً أو تخلفاً عن سائر الجرائد التي تباريها في السوق ، فشرع بتصفيحها كي يهتدى إلى علة هذا الركود . وبعد دراسة للصفحات والأبواب قصد إلى رئيس التحرير واقترح عليه أن يبحث عن محرر قد اعتاد الشراب يكتب كل يوم حديثاً للقراء يتألف من خطراته والسكرانة ، فلما سأله رئيس التحرير عما بعثه على هذا الاقتراح أجابه بأن علة الركود في بيع الجريدة هي أنها مسرفة في الجلد ليس فيها كلمة مزاح أو نكتة مضحكة . وأن القراء يسأمون الجلد ويحتاجون إلى شيء من الهزل من وقت لآخر

وعلى هذا الأساس اتجهت الصحف الكبرى إلى أن تخصص جزءاً من أعمدها للكتاب المرحين . ولاتسكاد تخلو جريدة من مثل هؤلاء الكتاب الذين يرفهون عن القراء بأحاديثهم

والصورة الكاريكاتورية هي ترفيه أنيق ، يحتاج إلى أعمال الفكرة واستخلاص النكتة في صورة تنطق أحياناً عن معناها ، بحيث لا تحتاج إلى كتابة شيء يفسرها ويوضحها أو هي تحتاج إلى أقل الكلمات

وقد ظهرت الصورة السكاريكاتورية عندنا منذ حوالى ١٩٢٠ واختصت بها مجلة الكشكول التي كان يصدرها المرحوم سليمان فوزى ، وكان يهدف منها فى كثير من الاحوال الى غير ما خصصت له . فكان يستقل بها من الترويج الى التشهير بالوفسدين . ولكنه مع ذلك فتح الباب وشق الطريق

ثم جاء محمد التابعى فجعل منها دراسة فى مجلاته التي كان يصدرها مثل روز اليوسف وآخر ساعة . وشاعت بعد ذلك فى بعض مجلاتنا ، ولكن جرائدنا اليومية لم تأخذ بها الا منذ قريب . وهى مع ذلك لم تعم جرائدنا حتى الآن

والصورة السكاريكاتورية خاصة وعامة

فهى خاصة حين تتناول إحدى الشخصيات فتبرز فيها سمتها أو موقفها فى شأن عام . وهى عامة حين تجعل من معناها نكتة لها قيمتها الاجتماعية . وهى بهذين النوعين تعالج السياسة كما تعالج الاجتماع ، وتوضح الأخبار والاتجاهات

والغاية من الصورة السكاريكاتورية هى ، كما قلت ، التخفيف من جدية الجريدة . وهى تروح عن القارئ لأنها تضحكه . ولكن لماذا يضحك ؟

ان للضحك تفسيرات عديدة ربما كان أقربها الى فهمنا أنه يجعل من الشخص أو الأشخاص آلات قد غاب عنها العقل . فهى تسلك سلوكا آليا ، وهذا هو تفسير «برجسون» . ومع أنى أجد فيه شيئا من الصدق فأنى لا أجد فيه كل الصدق

فليس شك أن نكات جحا تنطوى على أنه ينطق ويسلك كما لو كان عقله قد غاب عنه فترة ما . كما في قوله مثلاً ، عندما رأى جلبابه يطير من جبل الغسيل ، بأنه بحمد الله على أنه لم يكن على جسده . والنكتة هنا ساذجة نضحك منها لأننا نحس خطأ جحا وحسابه شخصه كما لو كان مثل الجلباب سيطير معه إذا دفعته الريح

ولكن معظم النكات ينطوى على سخرية تعلو على الساذجة . مثال ذلك الصورة الكاريكاتورية التي نشرتها مجلة بنش الانجليزية ، ذلك أن الانجليز يصفون الاسكوتلانديين بالبخل ، وأيضاً يبطء الفهم ونحن نجد في الصورة رجلاً اسكوتلاندياً يلعب التنس . وبعد أن انتهى من الدور أراد أن يعطى غلام الكرة ، الذي يجلبها له حين تنأى عن ميدان اللعب ، قروشا . ولكنهم لم يخله أعطاه شيئاً ضئيلاً غاظ الغلام الذي أراد الانتقام . فاقترح على الاسكوتلاندى أن ير بختته من كفه ونظر الغلام إلى الكف وقال : « أنت اسكوتلاندى » . والمعنى هنا أنه بخيل

ووافق الاسكوتلاندى على ذلك . ثم قال الغلام بعد نظرة ثانية إلى الكف : « وأنت أعزب » ،

ووافق الاسكوتلاندى على هذا القول أيضاً . ثم نظر الغلام النظرة الثالثة إلى الكف وقال : « وأبوك أيضاً كان أعزب » ،

والذى يضحكنا هنا جملة أشياء ، منها أن الاسكوتلاندى يبدو في الرسم مديد القامة ناضج الرجولة في حين أن الغلام صبي لا يزيد على الثانية عشرة . واحساسنا بأن الصبي قد غلب الرجل يثير الضحك .

وهو يثيره أكثر حين نعرف أن الصبي أخذ من الرجل عوضاً عن حقه
هذه السبة التي وجهها اليه . ثم نضحك أيضاً عندما نجد الاسكوتلاندى
مرتبكاً بشأن الاجابة الأخيرة ، فقد كان ينتظر كلمات حلوة منعشة
فاذا به يجد لظمة

وهنا لايسعفنا برجسون بتفسيره الآلى للضحك

الصحافة والرأى العام

حضارتنا القائمة هي حضارة الغرب ، أى حضارة رأس المال ومعنى هذا أن كل انسان حر فى أن يقتنى ويدخر ثم يشتري العقار ويستغله . ومعنى الاستغلال أن نكسب منه اما بتأجيريه ، كما نفعل فى المسكن ، وأما باستخدام عمال يعملون فيه بالأجر . فنكسب فى الحالتين . وكسبنا يعود الى مال ادخرناه ثم استغللناه . ونعيش بذلك على عمل الآخرين وحضارة الغرب الاستغلالية هي التى أدت الى الاستعمار بكل ما جلبه على السكان فى المستعمرات من ظلم ، ونهب ، وتوحش ، ومرض ، وفقر ، وجهل

يفعل رأس المال هذا فى المستعمرات حين يستغل السكان بما يشبه السخرة بحيث لا يزيد أجر العامل على مليمات أو قروش حتى يكبر كسب صاحب أو أصحاب رأس المال . وهو يحاول أن يفعل أو يسلك هذا السلوك حتى فى بلاده التى نشأ فيها . ولكن نظم العمال النقابية هناك تقاومه وتكفه عن الفتك بالعمال . ثم هناك قوانين عديدة تخفف من طغيانه . كما أن الرأى العام على تنبه دائم لمحاولاته فى الاستغلال

الاجرامى

ووسيلة التنبيه للرأى العام هى الصحف

ذلك أن الصحافة حرفة ورسالة

هى حرفة من حيث أن أصحابها ومحرريها ومخبريها وسائر موظفيها
وعملها ينشدون منها الكسب أو الاجر كى يعيشوا مثلهم فى ذلك مثل
جميع من يعملون ويكسبون

ولكنها أيضا رسالة ، لها شرف الرسالة وواجب التضحية وشهامة
الانسانية والوطنية . ومن هنا مواقفها الخطرة التى ربما تؤدى الى افلاسها .
ولم تفلس جرائدنا المسكخة الا لملل هذه المواقف التى اعتقد فيها
الصحفيون أن الانسانية والوطنية تطالبهم فيها بالكفاح
ومامت صحفنا المسكخة وعاشت الصحف المتفرجة المحايدة

* * *

وفى تاريخ الصحافة المصرية كثير من هذه المواقف المشرفة
فان جريدة السياسة مثلا حاربت اسماعيل صدق . بل حاربت الملك
الاسبق فؤاد بشأن الدستور الذى ألغياه وسنا بدلا منه دستورا آخر
وكذلك حاربت السياسة الوزارة فى اقدامها على اضطهاد على عبد
الرازق لانه نشر كتابه « الاسلام وأصول الحكم » وكان اضطهاد
المؤلف اضطهادا لحرية الفكر فى مصر

* * *

والاستعمار هو كارثة الانسانية فى القرن العشرين . وهو فى كل
زمان ومكان كارثة . ولكنه يعود أكرث وأنكب حين يقع فى

حرب . ذلك أن الدولة المستعمرة تحس الخطر على ما انتهت به من أقاليم وثروات . وتحس ، مع الخطر ، أن حقها في هذا الانتهاب المخصوص لا يزيد على حق الدولة التي تحاربها إذا تغلبت عليها ، إذ لن يكون لها أى حق في هذا الحال في أن تناشد العالم العدل أو الشرف أو الحق ، إذ هي ، بالاستعمار ، قد داست جميع هذه القيم . ولا يمكن أن يكون هناك عدل أو شرف أو حق مع الاستعمار

ولهذا السبب يطغى الإستعمار في أثناء الحروب على المستعمرات ولا يبالى قتل الناس وخطف الأموال وتعطيل القوانين . بل لقد رأينا كيف كان الانجليز يخطفون الناس ويبعثونهم إلى فلسطين بدعوى أنهم « متطوعون » . مع أن هذا التطوع كان يحتاج إلى ربطهم بالحبال حتى لا يفروا وهم يقادون إلى فلسطين مكتوفين . . .

ولا يمكن أن نفتخر من المستعمر رافة . بل الحق الذي نعترف به أنه مضطر إلى القسوة وممارسة الوحشية التي لعله قد يستنكرها وقت السلم . ذلك أنه يرى أبناء بلاده يقتلون ويمزقون ، وأن مصير وطنه في كفة القدر الذي ربما ينتهي ليس بالهزيمة فقط بل بالفناء أيضاً . فكيف وهو في هذه الحال نطالبه بالرافة مع بلادنا وأبنائنا مدة الحرب ؟ ولكننا ، مع هذه التقديرات ، يجب أن نكافح ولا نستسلم

* * *

والرجل المتمدن المثقف في عصرنا يقرأ جريدته للاستنارة عن شئون العالم . وقد ازداد وجداننا العالمي في السنين الأخيرة بالاشتباكات السياسية والاقتصادية كما جعلت الطائرات والتلغرافات عالمنا هذا صغيراً

فى أبعاده كبيراً فى نفوسنا . فأصبحنا نهتم بأخبار هونج كونج ونيويورك
وموسكو ولندن ودمشق وبغداد كما نهتم بأخبار اسيوط والاسكندرية.
بل ربما يزيد اهتمامنا بهذه المدن الخارجية أكثر من اهتمامنا بمدننا
المصرية

ولذلك فإن الجريدة أو المجلة التى تقتصر اهتمامها على شئون وطنها
فقط انما تعد قروية فى عصرنا ، تتحدث أحاديث القرية وتجهل الآراء
العالمية بشأن العالم
ثم أن تطور العلاقات المصرية بالدول العربية قد حمل الصحف
مسئوليات جديدة بشأن التنوير والتعريف والتقريب

كيف نرفع الصحافة إلى مقام الأدب

. من الحوادث التي يجدر بكل أمريكي أن يفخر بها أن أحد الناقدين في الولايات المتحدة كتب ذات مرة يقول أن دكرستيان سينس مونيتور، وهي من كبريات الصحف اليومية الأمريكية قد انحط شأنها لأنها لم تعد تبالي بالآداب والعلوم، وأنها كانت تعنى قبلاً بتثقيف قرائها أكثر مما تعنى الآن

ولم ترد عليه هذه الجريدة بالانسكار . ولكنها عمدت إلى العدد الذي صدر في اليوم الذي فيه هذا النقد فجمعت ما فيه من آداب وعلوم وفنون . وطبعت كل ذلك في كتاب مستقل يحوى أكثر من مائة صفحة . فكان كتاباً رائعاً لا يزال يباع إلى الآن

وهذا محصول يوم واحد من جريدة يومية . والحق أنى لا أعرف في العالم كله جريدة تعلق على هذه الجريدة . فانها قد رفعت الصحافة إلى مقام الأدب ، وهي تختار لكتابة أخبارها ومقالاتها أدباء وعلماء واجتماعيين وفنانين . والقارئ الذي يتناولها لا يجد الأسلوب الأدبي فحسب وانما يجد الدلالة الاجتماعية في الخبر

الساذج ، ويجد الارشاد والتوجيه الفيلسفين فى المقال التحريرى
وما أجدرنا نحن الصحفيين المصريين بأن نلثفت إلى هذه المرتبة العالمية
التي بلغتها الصحف الاوربية والامريكية، أو بلغها بعض الممتاز على الأقل .
وخاصة بعد أن تفشت بيننا صحف تثير الاشمئزاز والالم سواء بنشر
الكاذب من الاخبار أو الزائف من الآراء أو الفاحش من الصور
والكلمات

ان الصحفي الممتاز هو الذى يكون قد وصل إلى الصحافة بعد أن
انصر فى بوتقة الاداب والعلوم والفنون ، بحيث يعالج حوادث اليوم
بميزان الآدب ويكتب بالأسلوب الأدبى الذى يزيد الفهم ويصقل
الذهن . والصحفى الممتاز هو الذى يبصر بقيمة العلوم فى التطور العالمى
الحاضر ، فيكون على معرفة وتقدير لتولستوى وجيته وعلى دراية
بالآمال والخاوف بشأن الطاقة الذرية . والصحفى الممتاز هو الذى
يفكر بعقل فولتير حين يتحدث عن قانون المطبوعات الحاضر فى مصر
وعن سائر القيود التى تصاغ للحرية . والصحفى الممتاز هو الذى يدرس
مشكلات مصر فى ضوء المشكلات والتيارات العالمية ، وأخيراً الصحفي
الممتاز هو الفيلسوف الاديب العالم الفنان

وقد كان أعظم الصحفيين العالميين من هذا الطراز ، ولا يزال هذا
شأنهم فى الجرائد الكبرى . بل ان بلادنا تستطيع أن تفخر بأن صحافتها
جذبت إليها ، فى بعض الأحيان ، الأذهان الحية التى ترشد وتوجه . فإن
وأحمد لطفي السيد « فيلسوف . وقد كان من حظى أن أوالى فى شبابى قراءة
الجريدة ، وهوى بحررها ، نحو ثمانتى سنوات : وكان « عبد القادر حمزة »

أديبا . وكتابه عن « حضارة الفراعنة » يدل على الآفاق الواسعة المتراوحة التي كان يتطلع إليها ، من خلال المناقشات السياسية والحزبية ، في السنوات الماضية . وكان « انطون الجميل » ، أديبا ، يتحدث عن بيت من الشعر باهتمام وعناية كما لو كان ينطوى على تغيير في الوزارة . ومن وقت لآخر نجد لطفه حسين نزوات صحفية تنقسم بطابع الأدب السامي وأحيانا أستسلم لخيال عابر وأسأل نفسي : كيف تكون حال هذه المجلة الأسبوعية أو هذه الجريدة اليومية لو أننا سلّمنا رئاسة التحرير فيها للطنى السيد ؟ لطنى السيد مترجم ارسطوطاليس ؟ ارسطوطاليس في الصحافة ؟

أجل . . ولم لا ؟

لا . لا نستطيع أن نحترق هذه الآراء إذا كنا عقلاء ، ولذلك انى آسف أشد الاسف على أن مثل لطنى السيد لا يوجد الآن في صحافتنا

الصخفى كما يجب أن يكون

ليس شك أن الصحيفة اليومية تحيا وتصدر للخبر
 الخبر هو أول ما نلشد في أية صحيفة يومية . وهناك من يستصغرون
 شأن الاخبار ، مع أن قيمتها التربوية بل الانسانية للحياة كبيرة جداً .
 اذ هى الصلة الروحية بيننا وبين الوطن الذى نلتفى اليه كما هى كذلك
 بيننا وبين العالم . ذلك أننا حين نوالى قراءة الاخبار اليومية عن
 أحداث العالم نحس قرابتنا لهذا العالم ، ونشتبك فى مشكلاته ، ونهتم
 بشؤنه فى الاصلاح والتعمير . فنجد معنى لارتقاء الصين ، ودلالة فى
 مشروعات الرى فى ميسيسى بالولايات المتحدة ، ونفرح للتقدم
 الصناعى فى الهند . وفى كل ذلك نرداد انسانية ، وتراحب آفاق جديدة
 متزايدة كل يوم لنمو الذهن ونضج النفس

ولكن الخبر مع ذلك ليس كل شىء فى الصحيفة اليومية ، وغاضة بعد
 أن ظهرت الإذاعة والتلفزة . فإن الصحيفة تصدر مرة واحدة فى
 اليوم فلانعرف منها أحداث العالم إلا مرة واحدة فى اليوم أيضاً .
 ولكن الإذاعة والتلفزة كلتاها تستطيع أن توالينا بالاخبار طول النهار

والليل . فها من ناحية الخبر أقدر من الصحيفة على الوصول إلى المستمعين والرائين

ولهذا نحن ننتظر التنوير والتعليق والتفهم والتبصير في الصحيفة بأقلام الكتاب الممتازين ، وهو ما لا نجده في المذيع أو التلفزيون . بل حتى حين نجد هؤلاء الكتاب الممتازين فيهما فأنتنا لا نلتفت إليهما بالعناية التي نلتفت بها إلى كتاب الصحيفة

وهنا يجب أن نلاحظ أننا نفهم بالعين وبالقراءة أكثر مما نفهم بالاذن والاستماع . ثم تمتاز الصحيفة بعد ذلك بأنها قيد الطلب ، نقرأها حين نريد بلا مواءمة معينة . لانستطيع تغييرها . نقرأها في الفراش ، وفي المكتب ، وفي القطار ، وقت راحتنا وفراغنا دون أن نقسر على ميعاد لا يتفق وأعمالنا اليومية

وأحسن الصحفيين هو من عمل مخبراً في بداية حياته الصحفية . وأحسن الكتاب المعلقين هو من اعتاد ، لسبق خدمته في إيراد الخبر ، أن يصل بين الأخبار والمقالات أو يكتب المقال الخبري أو الخبر المقال ، أذ هو عندئذ يكسب تعليقاته حيوية الخبر ، ويبقى على الدوام متصلاً بالمجتمع والانسانية والبيئة ، ولا يشطح في أبحاث تنأى عن اهتمامات الجمهور . أجل . ولا يحتقر الجمهور ، كما هو الشأن في كثير من الكتاب الصحفيين الذين لم يتركسوا بالخبر قبل كتابة المقال

الأدب يجب أن يكون للشعب وللانسانية والمجتمع . ولا نقصد بكلمة الشعب تلك العامة من الغوغاء ، فنزل إلى أفرادها بمغريات وضيعة فنشد منها رواج القصصة أو الكتاب أيا كان موضوعه .

ولما تؤلف للشعب كله خاصته وعامته . وهذا ما يجب أيضاً أن تكون وجهة الصحيفة بحيث . تكتب للشعب وللخاصة وللأمة

بل ان الشعب الامثل ، الشعب المتمدن ، يجب الا يميز بين الخاصة والعامة . اذ يجب أن يؤدي نظامه الديمقراطي السوائى إلى تعميم الثقافة ورفع مستوى التعليم ، بحيث لا يحتاج الصحفي ، كما لا يحتاج الأديب ، إلى الزعم بأنه يكتب للخاصة أو يتوسل باغراءات وضیعة إلى النزول إلى ما يسميه مستوى العامة

ولان الصحيفة ، مثل الأدب أيضاً ، تتخاطب الشعب كله بمختلف اتجاهاته الثقافية والفنية والاقتصادية ، فانها يجب أن تستوعب جميع ألوان النشاط الذهنى السياسى والاجتماعى والفنى والعلمى . وهى حين تفعل ذلك تربي قراءها كما أنها تقرب بين طوائف الشعب

ولكن الذى يجب أن نؤكدده هنا أن الصحيفة لا يمكن أن تحايد . أى أنها يجب أن يكون لها مذهب أو مذاهب فى الوطنية والسياسة . فان فى الدنيا خيراً كثيراً وشرّاً كثيراً . والصحفى الذى يقول أنه ينقل الخبر ، وأنه لا شأن له بالعدل أو الاستبداد ، وبالاستعمار أو الاستقلال ، وبفساد الحكم أو صلاحه ، إنما هو صحفى عاهر يفسق بذهنه . ولعله أيضاً يساوم على ضميره

فالصحفى ، مثل الأديب ، لا يمكن أن يكون متفرجاً ، يروى الأحداث ، ويقتصر على الرواية ، غير معنى بما يصيب الأمة أو الانسانية من خير أو شر

لا . ليس هناك برج عاجى سواء فى الأدب أو الصحافة

وليس هناك في المجتمع الحسن متفرجون في الصحافة
والصحفي ، كما يجب أن يكون ، يحتاج لهذا السبب أن يدرس كثيراً
ويختبر كثيراً . وهو ، إذا كان قد بدأ حياته الصحفية بالمرانة على
كتابة الخبر ، فإن اختباره ستكاثرت طيلة حياته ، لأن الخبر سيبقى
بارزاً في ذهنه يحركه إلى التفكير الذي يبنى ويعبر ، وإلى التعليق الذي
يرشد وينهdy

أليست هذه الدنيا حوادث ؟ ثم أليست الحوادث أخباراً ؟
إن كل إنسان متمدن ، يحيا في مجتمع متمدن ، يجب أن يشترك في
شئون هذا المجتمع . والصحفي أولى الناس بهذا الاشتباك . وأنا هنا
أنظر إلى أخلاقه قبل أن أنظر إلى حرفته . اذ هو قد ينجح النجاح المالى
إذا بقى متفرجاً محايداً لحوادث بلاده والعالم . ولكنه لن ينجح النجاح
للإنسانى ، النجاح الشريف الذى يجب أن يهدف اليه كل صحفي ، إلا
إذا اشترك مع مجتمعه فى كفاح للخير والشرف والانسانية والعدل
والاستقلال

وبعد هذه الكلمات العامة عن الصحفي « كما يجب أن يكون » ، نحتاج
إلى كلمات خاصة تمس الحرفة مساً خاصاً
ومع أنه يمكن أن يكون هناك تعليم خاص لتخريج الصحفي فأنى لا أتمالك
الاحساس بأن الصحافة هواية قبل كل شئ . وقد ترجع فى جذورها
المختبئة إلى ما يسمى فى السيكولوجية « العرض » أو فى التعبير المألوف « حب
الظهور » . وقل أن يخلو صبي أو شاب من ذلك . ولهذا كثيراً ما نجد
الأغراء قويا بين الشبان للكتابة فى الصحف فيما بين سن العشرين وسن

الثلاثين فيرسلون؛ قالاتهم؛ أو قصصهم إلى الصحف فإذا صادفوا نجاحا
احترفوا الصحافة ، أو هم يكفون بعد أن يتحققوا أن كفاءتهم لاتعينهم
على ذلك

الصحافة ، كالشعر والادب والفن ، هواية.

ولكن الهاوى يحتاج إلى التربية والتعليم حتى يمهر ويحذق ويحتاج
إلى ظروف مؤاتية أيضاً في الجمهور أو البيئة . واني لأجد ، من اختباراتي
الماضية التي تزيد على نصف قرن ، أن خير ما يؤهل للصحافة الراقية ،
في بلادنا وسائر الأقطار العربية ، اتقان لغة أجنبية على الأقل . ولغتين
خير من لغة . وذلك أن الاتصال بلغتين أجنبيتين ، مثل الفرنسية
والإنجليزية ، أو الألمانية والروسية ، يصل بين الصحفي العربي وبين التمدن
العصرى . كما يتيح له الرحلة كل سنة أو سنتين إلى أقطار أجنبية ينتفع
بزيارتها ودراسة مؤسساتها وتجديداتها . ومن الغرور الكاذب أن
نزعم أننا ، نحن الصحفيين المصريين مثلاً ، في د اكتفاء ذاتي ، لانحتاج
إلى اللغات والآداب الأوروبية أو الأمريكية . فإن حاجتنا إلى هذه اللغات
لاتقل في الصحافة الراقية عن حاجتنا في الطعام للغذاء الصحي

وكما نحتاج إلى اللغات الأجنبية ندرسها باتقان نحتاج أيضاً إلى
زيارة الأمم الأجنبية وإلى الإقامة شهوراً أو سنوات في باريس وبرلين
ولندن ونيويورك وموسكو . كي تتعمق البواعث والحوافز في السياسة
والاجتماع والاقتصاد والارتقاء . ذلك لأن الاستعمار والاستبداد
كلاهما قد أخرنا عن اللحاق بموكب الحضارة العصرية ، فنحن في حاجة
لا تنتقطع عن استملاء هذه الحضارة من الأمم المتمدنة المتقدمة . وأسوأ

ماتمانيه الصحافة المصرية في وقتنا من حيث تفاهة موضوعاتها وأخبارها يعود في النهاية إلى أن المحرر أو المخبر لم يدرس لغة غربية وأعنى أنه لم يدرسها دراسة الاتقان ، ولا أعنى أنه لم يعرفها ، فإن المعرفة قد تكون رطانة. لا تغنى

ثم يجب أن يكون الصحفي ، كما للأديب والفنان والشاعر ، كفاح. وبكلمة أخرى يجب ألا يكون متفرجا متسليا بالكتابة وبالدينيا . وقد رأينا في مصر في الخمسين سنة الماضية عشرات من الصحف والصحفيين المتفرجين ، المتسلين ، الذين كانوا ينشدون « النجاح » بالأحجام عن التورط في مشكلاتنا السياسية والاقتصادية . فلا ينتقدون وزيراً ولا يبرزون فضيحة دارية ، ولا يعارضون خطة استعمارية أو استبدادية . بل رأينا كتابا مدحوا جميع الأحزاب ، وأثنوا على السادة العظماء ، من فاروق إلى الأذئاب ، بقصائد ومقالات

يجب على الصحفي الشريف أن يشتيك ، وألا يبالي أن يؤدي به هذا الاشتباك إلى التورط في الحبس ، وأن يقع في الاضطهاد . إذ عليه أن يتحمل كل ذلك باعتباره جزءاً من حرفته ، بل من شرف حرفته ، وأن ينهض في وجه الظلم والفساد ولو أدى هذا إلى إفلاسه ودماره

ذلك أن لكل حرفة مقتضياتها التي يقتضيها الشرف ، شرف الحرفة فإذا وفد وباء كالكوليرا أو الطاعون على مصر فإننا ننتظر من الأطباء أن يهرعوا إلى مكان العدوى ويكافحوا هذا الوباء ، حتى مع يقيننا. ويقينهم بأن الموت ممكن أن يكون جزاء خدمتهم واسعافهم

المرضى : ولا يمكن أن نقر طبيباً على الفرار من الكفاح أو الوقوف
موقف المحاييد المتفرج
كذلك الشأن في الصحافة

فإذا واجه الصحفي ظلماً أو فساداً أو استعماراً فإن عليه أن يكافح ،
حتى ولو وثق بأن كفاحه قد ينتهى بدماره ويحججه وأفلاسه . لأن شرف
الحرفة يقتضى ذلك

والصحيفة المثلى هي ، بعد كل شيء ، معهد عام وليست مشروعاً
خاصاً . أى أنها تنصب نفسها ، وتذخر كتابها ، للخير والبرية والتطور
والتجديد . توسع من صفحاتها للكاتب الناضج ، وتوسع من اختياراتها
للكاتب البادئ ، وتبقى أمام الشعب مصباحاً يهتدى فى الظلمات وعنواناً
لمعانى الشرف والخدمة

ويجب الانسى أن لهجة الكاتب واسلوب تفكيره واتجاهه وهدفه ،
كل هذا ينتقل إلى القارئ ، فيعين مزاجه بل يعين أخلاقه . فإذا كان
الكاتب مكافحاً فإن القارئ سيكون أيضاً مكافحاً . وإذا كان متفرجاً
محاييداً فإن القارئ سيكون أيضاً متفرجاً محاييداً

وفى عصرنا هذا حيث تتعدد المذاهب والأفكار ، وتتصارع
الديمقراطية مع الاتوقراطية ، وتلتصب الحرية ضد الطغيان ، وينهض
الاستقلال ضد الاستعمار ، ويحارب الفقر الفاحش الثراء الفاحش ،
فى هذا العصر لا ينبغى أن يكون هناك انسان محاييد أو صحيفة محايدة
وبعد كل هذا الذى ذكرنا ، مما يؤهم أن الصحافة مهنة شاقة كثيرة
المسئوليات ، نحتاج إلى أن نقول أنها ليست مهنة فحسب وإنما هي

حياة أيضاً . فالذى يختار الصحافة لا يختار مهنة للكسب فقط ، بحيث يقصد إلى عمله في الصباح ثم يعود إلى بيته في المساء ، وقد نسي مهنته ، واشتغل بشئون عائلية أو اجتماعية أو ترويحية أخرى لا ليست الصحافة كذلك ، إذ هي مهنة وحياة معا

وأقرب الأشياء إليها ، من حيث اندغام المهنة في الحياة ، هو مهنة الزراعة أو مهنة التأليف . فالزارع لا يحترف الزراعة فقط ويفصلها من حياته ، وإنما هو يحيا حياة الزراعة التي لا يقتصر اهتمامه بها على اقتصادياتها وما يكسب منها له ولعائلته . وإنما هو يجد فيها أسلوبا للعيش وأهدافا للسعادة لا يجد مثلها ساكن المدينة . فهو يحب رؤية الأرض المحروثة يسير عليها ويتشم منها أريج الخصوبة . وهو يألف البقرة والخنزير والخروف ويحس صداقة إنسانية نحوها . وهو يخرج في ظلام الفجر الأبيض كي يرى الدنيا وهي صامتة قبل طلوع النهار . وهو يقنع بما يزرع ويحيا في بطنه بلا عجلة أو هرولة . وطعامه ساذج . ولباسه ساذج . إذ هو إلى حد بعيد لا يزال ابن الطبيعة

الزراعة حياة كما هي حرفة

وكذلك الشأن في الصحافة . فإن الصحفي العظيم يجد أنه مكلف دراسة الدنيا . وتلغرافات الصباح التي يقرأها ، والتي ترد إليه من أنحاء العالم ، يكاد يحس أنها رسالات شخصية إليه . والأسماء الجغرافية عنده تتكسب ألوانا إنسانية . وهو يدرس الدنيا والمجتمع والسياسة والجريمة والحرب والتاريخ والأدب والعلم ، كما لو كانت جميعها ضرورية لحرفته ، أي لحياته . وهو لهذا السبب يحس ارتقاء متواصلا . يقرأ ، ويختبر ،

ويبحث عن الحادث الخطير ، كى يتدخل أشخاصه ووقائعه ويعرف منه
الأسرار فى البواعث . وهو يزور الأقطار الأجنبية بنفس الإحساس
الإنسانى الذى يزور به المدن والقرى فى وطنه . وهو ، كما هى الحال
عند محترفى التأليف للكتب ، يقتنى الكتب كى يقرأ ويستشير .
أجل . ويؤلف

ولإذن يجب أن نقول أن أعظم ما يعوض الصحفي العظيم من
مشاقه أنه يحس ارتقاء متواصلا عاما بعد آخر . أى يحس أنه ينمو ،
ويزداد نضجا ، بل ايتاعا ، فى الإنسانية

فهرست

صفحة	
٥	يوم أن ماتت صحافة مصر
٢١	لما كانت الصحافة محتقرة
٢٧	الصحافة تلقى عنتاً وعسفاً
٣٣	كيف أفسدت الحكومة الصحافة المصرية
٣٩	الإعلانات في الصحف
٤٥	الأسلوب في الصحافة
٥١	رذيلة صحفية : تملق الجماهير
٥٧	الصحافة المصرية في نصف قرن
٦٥	الكفاح في صحيفة اللواء
٧١	الكفاح في صحيفة الجريدة
٧٩	كفاحي في الصحافة
٨٧	صحافة المقالة وصحافة الخبر

صفحة	
٩٧	المرأة في الصحافة
١٠١	الفن الكاريكاتورى
١٠٥	الصحافة والرأى العام
١٠٩	كيف نرفع الصحافة إلى مقام الادب
١١٣	الصحفى كما يجب أن يكون

مطبعة التقدم

٤٤ شارع المواردى بالبنية - القاهرة

تاسير ٤١ - ٤٦

كتابات هادفة حياة انسانية شريفة

- ٢٣ حياتنا بعد الخمسين ١٩٤٤
٢٤ حرية العقل في مصر ١٩٤٥
٢٥ البلاغة العصرية واللغة ١٩٤٥
٢٦ التثقيف الذاتي ١٩٤٦
٢٧ عقلي وعقلك ١٩٤٧
٢٨ تربية سلامة موسى ١٩٤٧
٢٩ فن الحب والحياة ١٩٤٧
٣٠ طريق المجد ١٩٤٩
٣١ (مجموعة قصص)
٣٢ محاولات ١٩٥٣
٣٣ هؤلاء علموني ١٩٥٣
٣٤ كتاب الثورات ١٩٥٤
٣٥ الادب للشعب ١٩٥٦
٣٦ دراسات سيكولوجية ١٩٥٦
٣٧ المرأة ليست لعبة الرجل ١٩٥٦
٣٨ برنارد شو ١٩٥٧
٣٩ أحاديث الى الشباب ١٩٥٧
٤٠ مشاعل الطريق للشباب ١٩٥٩
٤١ مقالات متنوعة ١٩٥٩
٤٢ الانسان قفة التطور ١٩٦١
٤٣ افتحوا لها الباب ١٩٦٢
٤٤ الصحافه حرفة ورسالة ١٩٦٣
٤٥ معجم الافكار

طبعة خاصة

٢٠

قرشاً أو ما يعادلها

02
Bibliotheca Alexandrina



0392338

هذا الكتاب
ملك الأستاذ الدكتور
رمزي زكس بطرس